الأسير المهندس عبدالله غالب البرغوثي

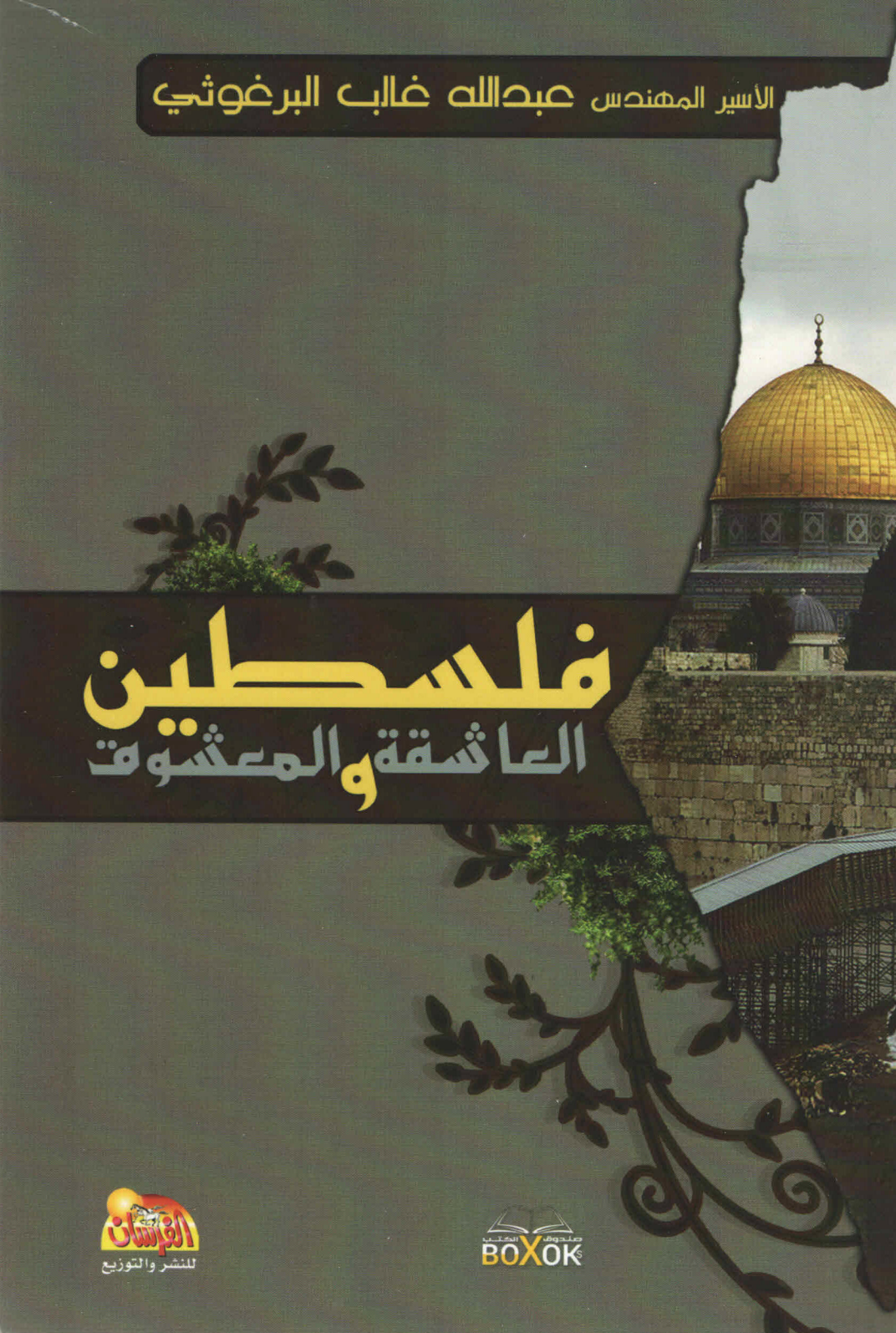

فلسطين
العاشقة والمعشوقة

الفرسان
للنشر والتوزيع

صندوق الكتب
BOXOK

الكتـــــــاب	فلسطين العاشقة والمعشوق
المؤلـــــــف	عبد الله غالب البرغوثي
التصميم والإخراج	كمبيوتر إكسبرس - عمان - ٠٠٩٦٢ ٦ ٥٦٩٨ ٣٦٠
الإشراف العـــام	م. حســـن صالـح

جميع الحقوق محفوظـــة لدى

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

يحظر نسخ و/أو طبع و/أو تصوير و/أو ترجمة و/أو إعادة صف وإخـراج هذا الكتـاب أو أي جزء منه و/أو تسجيله على الأشرطة و/أو وسائل تحميل الصوت أو الصورة و/أو الأقراص المدمجة أو المغنطة و/أو إدخاله على الكمبيوتر أو قواعد البيانات و/أو استغلاله بأي شكل من الأشكال إلاّ بموافقة خطيّة من الناشر.

All Rights Reserved ©

Al Fursan Est. For Publishing & Distributing

No part of this publication may be reproduced or distributed
in any form or by any means, or stored in a database or retrieval system,
without the prior written permission of the publisher.

الطبعة الأولى

2015م - 1436هـ

9789957606398 ISBN

رقم الإيداع 471/02/2015

مؤسسة الفرسان للنشر والتوزيع

Al Fursan Est. For Publishing & Distributing

Jordan - Amman - Abdaly	الأردن - عمـان - العبدلي
Tel. +962 6 560 73 87	هاتف : ٠٠٩٦٢ ٦ ٥٦٠ ٧٣٨٦
Fax. +962 6 565 53 70	فاكس : ٠٠٩٦٢ ٦ ٥٦٦ ٣٤٧٠
P.O.Box 240664 Amman 11124 Jordan	ص.ب ٢٤٠٦٦٤ عمان ١١١٢٤ الأردن

E-mail: alfursan111@yahoo.com

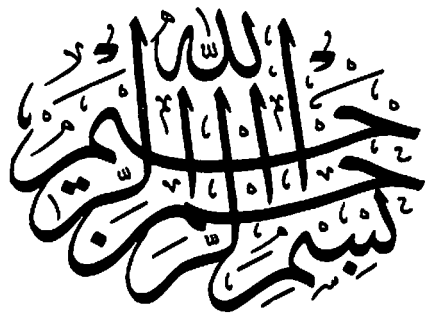
بسم الله الرحمن الرحيم

من أقوال المهندس عبد الله البرغوثي

لست كاتباً محترفاً، فأنا مجرد مقاوم عشق إطلاق الرصاص إلى صدور بني صهيون، وعندما عز الرصاص في بندقيتي، لم أجد سوى الرصاص في قلمي، قلم الرصاص، كتبت وسأبقى أكتب، وستبقى كلماتي تزعج كل من يقف في طريق المقاومة، كل شوكة وكل عقبة وكل مرجف.

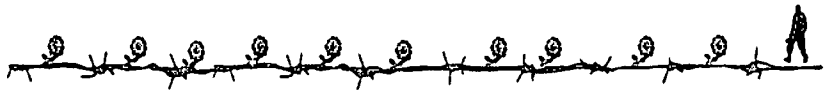

الإهداء

أهدي هذه الرواية إلى الأخوات المحاميات.. وإلى الإخوة المحامين.. كلهم بلا استثناء

أهديها إلى:

الأخت المحامية شيرين العيساوي، ابنة مدينة القدس المحتلة، شاكراً إياها على كل ما فعلته من أجلي ومن أجل قضية الأسرى في معتقلات العدو الصهيوني....

شكراً شيرين العيساوي.. شكراً يا زعترةً بريّة أصيلة.. عرفت فلسطين بقدسها وأقصاها، فضحّت من أجلها بكل غالٍ ونفيس... شكراً.

أهديها إلى:

الأخ محمد عابدين، المحامي المقدسي الذي قدّم لي وللكثير من الأسرى الكثير الكثير..مما جعله يتحوّل من مجرّد محامٍ إلى أخٍ وصديق... صديقٍ صدوق، شكراً للصديق الصدوق محمد عابدين ابن القدس، وأخ الأسرى والمعتقلين.

أهديها إلى:

الأستاذ المحامي والأخ العزيز يوسف منيا، وإلى الأخت المحامية شيرين ناصر اللذين كانا أفضل من عرفت من محامين عاملين في نادي الأسير الفلسطيني.. فهما أيضاً مقدسيان، بكل ما تحملة الكلمة من معنى.. شكراً للمحامي يوسف منيا وللمحامية شيرين ناصر.. شكراً وألف شكر.

أهديها إلى:

مديرة مؤسسة مانديلا الأستاذة المحامية بثينة دقماق، التي واصلت عملها في خدمة قضية الأسرى، رغم كل الصعاب التي واجهتها.. شكراً لك أختاه..شكراً.

أهديها إلى:

المحامي محمد أبو سنينة، والمحامي محمد الشايب، والمحامي فواز الشلودي، والمحامي محمد العابد والمحامي إلياس الصباغ... أهديها إليهم قائلاً: شكراً وألف شكر لما قدمتموه، وما زلتم تقدمونه حتى الآن.

أهديها إلى فلسطين المحامية والزعترة البرية
التي صنعتها نسجاً من خيالي

فهرس المحتويات

المقدمة	٩
الفصل الأول: ويزداد غبائي غباءً	١١
الفصل الثاني: جفّت الكلمات على شفتيَّ	٢٣
الفصل الثالث: عادت الكلمات وعادت معها الذكريات	٣٣
الفصل الرابع: الجمود بلا حركة هو الاستسلام	٤٥
الفصل الخامس: سعيدةٌ أنا، ولكن	٥٧
الفصل السادس: قلبٌ ينبض حزناً	٦٩
الفصل السابع: بالأمل وحده تحيا القلوبُ المليئة بالإيمان	٧٩
الفصل الثامن: ليس بعد الليل إلاّ فجر مجدٍ يتسامى	٨٩
الفصل التاسع: هل يغادر الجسدُ القدسَ وتبقى الروح أم تغادر الروح ويبقى الجسد؟؟	٩٩

المقدمة

حاولت.. ليس إلاّ... في رواية «فلسطين العاشقة والمعشوق» أن أجد زعترةً بريةً ذات رائحةٍ فواحة، وذات جذرٍ فلسطيني طيب...فحاولت، وحاولت...فلم أستطع إيجاد ما كنت أبحث عنه.

وعلى الرغم من ذلك، فلقد تمكّن العشق العذري والمأساة القاسية من إيجاد زعترة برية مقدسية ذات جذرٍ طيب، ما زال ينبض بالحياة والعزة رغم جبروت غيلان الظلم الصهيوني الحاقد، ذلك الغول الذي يواصل محاولاته في احتلال الحجر والبشر وحتى جذور الزعتر البري الطيب.

أوجد العشق والمأساة محاميةً فلسطينيةً اسمها «فلسطين» فصنع منها زعترةً برية أحبت الأرض والطين، وعشقت فارساً، غضنفرًا... مقاوما.

كُتبت هذه الرواية من داخل قبو عزلي الانفرادي في معتقل سجن الرملة، فالكاتب هو أسير فلسطيني، اعتقل وعزل عن العالم الخارجي منذ عام ٢٠٠٣ وحتى يومنا هذا.

هو عبد الله غالب البرغوثي صاحب أعلى حكم قضائي في تاريخ القضية الفلسطينية منذ أن بدأ الفلسطينيون دربهم في الثورة والمقاومة، ولقد حكم عليه بسبعٍ وستين مؤبداً وخمسة آلاف ومئتي عام... لأنه قرّر أن يقاوم العدو الصهيوني، وأن يلحق به أشد الضربات وأقواها... سائراً على درب الجهاد في سبيل الله، موحداً ربّه، مؤمناً بعدالة قضيته.

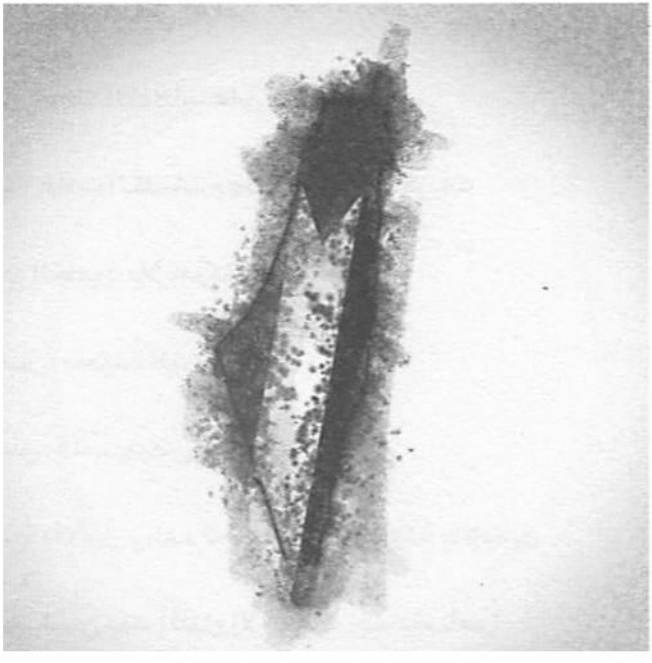

الأسير الفلسطيني عبد الله غالب البرغوثي

صاحب أعلى حكم في تاريخ القضية الفلسطينية والمحكوم عليه بسبعةٍ وستين مؤبداً، وخمسة آلاف عام ومئتين...وصاحب أكبر ملف أمني بتاريخ أجهزة الأمن الصهيوني...

عبد الله البرغوثي المهندس الذي سار على الطريق...

نحو القدس والأقصى نحو فلسطين حرةٍ أبية.

الفصل الأول
ويزداد غبائي غباءً

ويزداد غبائي غباءً

غبية أنا..ويزداد غبائي يوماً بعد يوم، أمعقول أنني لم أتمكّن من التعرّف عليه رغم أنه كان جالساً أمامي بعظمته وهيبته؟، وكم كنت غبيةً عندما فسرت تلك العظمة والهيبة على أنها وقاحة وغرور، أمعقول أنني لم أعرف الغضنفر عبد القدوس؟...معقول، لا ليس معقولاً، بل إنني لم أكتفِ بعدم معرفته وحسب، بل استهزأت به ولم أمنحه الوقت ليكمل رسالته التي كان يود مني أن أكتبها لوالدته... بضعة سطور هي ما كتبت من أجله، ثم توقّفت عن الكتابة متذرعةً بأنني لا أملك الوقت اللازم لإتمام رسالته، تركته جالساً وقمت واقفةً على قدميّ وتركت المكان.لا أعلم ماذا قال عني عندما تركته وحيداً ليعاودوا تكبيله وإعادته إلى زنزانته مرةً أخرى، ذلك الصنف من الرجال لا يقول ولا يشكو همه لأحد، بل يُبقي جرحه داخله ولا يسمح لصرخة الألم أن تخرج من فمه.. أليس هو عبد القدوس الذي أمضى عدة أشهر تحت العذاب في أقبية التحقيق الصهيوني دون أن ينكسر صمتُه، ودون أن يكشف سرّه أنه الغضنفر، وأنا «فلسطين» الفتاة الغبية. نعم غبية أنا، وغبائي يزداد يوماً بعد يوم، فمنذ أن أهملت دراستي لم أتمكن من الحصول على المعدل الذي يؤهّلني لدخول كلية الطب، أدركت أنني غبية، غير قادرةٍ على احتمال عدة أشهر من المذاكرة حتى أصل إلى النتيجة التي كانت شبه مؤكّدة، فلقد كنت طوال الأعوام الماضية طالبةً متفوقةً ومتميزة، الكل كان يتوقع مني أن أحصل على أعلى العلامات، فمنذ طفولتي وأنا أحصل على معدل «تسع وتسعين بالمئة»، ولقد كان دخولي لكلية الطب مضموناً ومؤكداً، لولا غبائي،

بل لولا استهتاري، ولولا ذلك الغرور الذي أصابني، فأنا جميلة والكل يتغنّى بجمالي، وذكية الكل يمتدح ذكائي، وسريعة الحفظ للدروس ومهاراتي متميّزة في حل المعادلات الرياضية، ولكنهم لا يعلمون أنّ جمالي الظاهر يغطي غروري وتكبّري، وأن ذكائي المعلوم لديهم يخفي غبائي في عدم معرفتي لما أريد.

فأنا حين لم أتمكّن من الحصول على ذلك المجموع الكبير، اضطررت إلى دخول كلية لم أرغب بها، ولم أحبها أبداً، وهي كلية الحقوق التي دخلتها كارهةً، ومع ذلك فقد حصلت على درجة التميز عندما تخرّجت منها.. تميزٌ في العلامات وتميزٌ في عدم مقدرتي على الاندماج في تلك الكلية، فما علاقتي أنا بدراسة الحقوق والمحاماة، وأنا أكره المحاكم والمجرمين والقضاة... بل إنني أكره اسمي «فلسطين» وما أدري لماذا سمّاني والدي بذلك الاسم.. فلسطين. فلسطين المعاناة والمأساة، فلسطين القضية التي لم تحلّ ولا أظنها ستحلّ أبداً، فلسطين المحامية كيف لها أن تكون محامية، وكيف لي أن أحمل اسمها على بطاقتي الشخصية، وهي فلسطين الوطن الأسير المحتل.. المحتل منذ أعوام ما عدت أذكر عددها من كثرتها، فلسطين المحامية تدافع عن المجرمين أو حتى عن أصحاب الحقوق أمام المحاكم الفلسطينية، وأين يحدث ذلك كله؟، يحدث هنا في فلسطين المحتلة التي تحكم السلطة الفلسطينية بعض مناطقها وتقيم بها محاكم مدنية وشرعية. منذ أن كنت متدربةً في أحد مكاتب المحاماة بمدينة القدس المحتلة، كنت أكره التوجّه إلى مناطق حكم سلطة أوسلو لحضور جلسات المحاكم هناك... فتلك المحاكم السلطوية المدنية لا تقل فساداً عن سلطة أوسلو، فالرشوة والمحسوبية والواسطة منتشرة بتلك المحاكم انتشار النار في الهشيم. ولذلك، فقد تركت تلك

المحاكم السلطوية الفاسدة لكي أترافع أمام محاكم العدو الصهيوني الظالمة، فقد أقام الصهاينة في المناطق المحتلة محاكمَ عسكريةً يصدرون من خلالها أقسى وأعلى الأحكام الجائرة على كل من يقاوم الاحتلال، سواء أكانت تلك المقاومة بالكلمة أم بالاحتجاج السلمي أم بالحجر الطفولي أم بالرشاش المقاوم، كما فعل الغضنفر عبد القدوس الذي لم أتمكّن من التعرّف عليه بل إنني أهنته، فظل صامتاً وكأنه بركان على وشك الثوران والانفجار.حدث ذلك عندما كلّفني صاحب المكتب الذي أعمل به، بزيارة عدد من الأسرى والمعتقلين الفلسطينيين في سجون دولة الكيان الصهيوني الغاصب، فبعد إعطائي قائمةً تضم أربعة أسماء، ركبت سيارتي مصطحبةً معي محاميةً أخرى، وهي «مجدولين» صديقتي التي أعرفها منذ أعوام طويلة، منذ أن تعرفنا على بعضنا البعض في كلية الحقوق التي ما زلت أكرهها حتى الآن.. مجدولين لم تكن مثلي قط، فقد دخلت كلية الحقوق رغم أن علاماتها تؤهلها لدخول أي كلية تشاء، ومع ذلك دخلت كلية الحقوق لكي تحقق حلمها في الدفاع عن أبناء مخيمها الحزين وبناته، فهي مقدسية ولدت في مخيم شعفاط، وهناك عاشت المعاناة والظروف الصعبة والفقر، عكسي تماماً فأنا ابنة عائلة مقدسية ثرية تملك منزلاً فخماً في إحدى ضواحي القدس، لم أعش أي نوع من أنواع المعاناة ولم أنم جائعة أو برداناً في أي يوم من أيام حياتي، فأنا الابنة المدللة لأب طيب حنون، وأم محبة عطوف، حتى إخوتي الصبيان، فقد كانوا كلهم يعاملونني كأنني جوهرة أو ماسة مقدسة، فأنا أصغرهم سناً وأكثرهم دلالاً...أما مجدولين، فقد كانت صخرةً مقدسيةً مثل صخور القدس، بل كانت قطعةً ذهبيةً من تلك القطع التي تزيّن قبة المسجد الأقصى المبارك.

بينما كنت أقود سيارتي متجهة نحو سجن مدينة بئر السبع الصحراوية، كانت مجدولين تقلّب أوراقها وتتحدث بهاتفها الجوال، أما أنا فقد كنت أتحدث مع نفسي متسائلةً عن غبائي الذي جعل مني محامية تقود سيارتها عدة ساعات حتى تقابل أسرى ومعتقلين فلسطينيين، أحبوا فلسطين فقاتلوا لأجلها وأسروا فداءً لها، وأنا فلسطين المحامية أكره طول الطريق المؤدي لسجنهم رغم أن سيارتي الفارهة مكيّفة ومريحة أكثر من اللازم كما تقول مجدولين.

مجدولين التي أنهت مكالمتها وبدأت بمحادثتي موجهةً إلي السؤال المعتاد عن الأسرى الذين سأزورهم، وعن أسمائهم...لم أجبها بل اكتفيت بأن أشرت إلى دفتر مفكرتي، فقامت على الفور بفتحه لتقرأ أسماء الأسرى الذين كنت قد حصلت على تصاريح من أجل زيارتهم، وهم أربعة أحدهم اسمه أحمد، والثاني هيثم، والثالث حسين، والآخر كان اسمه عبد القدوس. لم أكن أعرف أياً منهم، ولم يكن يهمني معرفة تفاصيل حياة أحد من أولئك الأسرى، فأنا لم أكن أهتم بالقضية التي أسروا دفاعاً عنها، وهي قضية تحرير فلسطين... ففلسطين- الّتي هي أنا- غير معنية بفلسطينهم.. فلسطين المأساة والتضحية والمعاناة لم تكن تعنيني يوماً، فكيف سوف أهتم لأمر من قاتلوا لأجلها، أما مجدولين فقد كانت تعرف أسماء الأسرى كلهم...كلهم بآلافهم المؤلفة، وكانت تحفظ بداخلها قصص بطولة أولئك الأسرى، بل كانت حلقةً للوصل بين أولئك الأسرى وذويهم. لم تكن مجدولين مجرد محامية بل كانت أكثر من ذلك بكثير. ما إن رأت مجدولين الأسماء، حتى قامت بالاتصال بزميلتنا المحامية «ساجدة»، وأبلغتها بأنني سأزور خطيبها وابن خالتها أحمد، وما إن أخبرتها بذلك حتى أعطتني الهاتف لأتحدث معها، وعندها طلبت مني ساجدة أن أوصل سلامها لخطيبها، وأن أطلب منه كتابة رسالة لها، فهي ممنوعة من زيارته على الرغم من كونها محامية.. أنهيت المكالمة معها، واعدةً إياها بأن أجعل خطيبها يكتب رسالة طويلة تجعلها تمل من طولها.

أما مجدولين، فقد كانت صامتة على غير عادتها، فهي ثرثارة تتحدث بلا توقف تارةً عن الوضع السياسي أو الوضع الإنساني الذي يحياه أبناء الشعب الفلسطيني، وتارةً أخرى تتحدّث عن أولئك الأسرى الذين كرّست جل وقتها من أجل خدمتهم، ومن أجل التخفيف من معاناتهم، أعطيتها هاتفها فكسر ذلك صمتها، وقالت: أتعلمين أن ذلك الغضنفر الذي ستزورينه اليوم قام قبل أعوام عديدة بضرب أحد سائقي التكسي من أجلي، عندها كنت في عامي الأول في كلية الحقوق، أما هو فقد كان مهندساً يعمل في أحد المصانع على أطراف مخيم شعفاط، لقد ضرب ذلك الغضنفر سائق التكسي المتهور الأرعن عندما كاد يصطدم بي، ورغم أنه هو المخطئ أخرج رأسه من النافذة ليشتمني بكل وقاحة، إلّا أنّ ذلك الغضنفر ترجّل من سيارته متوجهاً نحوي فرفعني عن الأرض وأجلسني على طرف الطريق، ثم توجّه نحو السائق موجهاً له اللكمة تلو الأخرى عقاباً له على ما فعل، وعقاباً له على إهانتي بتلك الشتائم التي أخافتني أكثر من الاصطدام بسيارته.

وما إن انتهى من عقاب السائق حتى عاد نحوي ليسأل عني إن كنت بحاجة للمساعدة، فقلت له: شكراً على ما فعلته، فقد أنقذتني من لسان ذلك السائق بعد أن أنقذني الله من الموت تحت عجلات سيارته، فقال لي الغضنفر: هذا هو «كرتي» ومكتوب عليه أرقام هواتفي إذا ما احتجتني كشاهد على الحادثة أو أي أمر يتعلّق بموضوع الحادث.ما إن شكرت الغضنفر حتى عاد إلى سيارته وانطلق بها بعيداً، وها أنا اليوم اصطدم باسمه من جديد بدفتر مفكرتي..وها أنت اليوم يا فلسطين ستزورينه وتتمكنين من رؤيته، فسلّمي لي عليه، وقولي له إنّ فلسطين بقدسها وأقصاها تشكرك وتضعك تاجاً على رأسها.ما إن أنهت مجدولين كلامها الذي لم أكن أستمع له بشكل جيد، حتى كنّا قد وصلنا إلى المعتقل، وانفصلنا،

فهي توجهت إلى أحد الأقسام لكي تزور الأسرى الذين كلّفت بزيارتهم من قبل مدير المكتب، وأنا توجّهت إلى قسم آخر، حيث جلست في غرفة زيارة المحامين منتظرةً الأسرى الذين بدؤوا بالوصول الواحد تلو الآخر.أول الواصلين كان هيثم، أخبرته بأنه تم تحديد موعد لجلسة محاكمته، وقلت له إن السيد عابدين مدير مكتب المحاماة سوف يكون حاضراً للترافع عنه، وأنني سوف أكون حاضرةً معه، ثم سألته إن كان هناك ما يود قوله لي بخصوص القضية، فقال لي أنه لا يوجد شيء جديد، وأنه يعلم أن المحاكم الصهيونية سوف تحكم عليه حكماً عالياً وقاسياً ليس لأن قضيته كبيرة بل لأنه مقاوم مقدسي.

لم أكن مهتمةً بما يقوله باستثناء موضوع المحكمة، وبما أنه لم يقل شيئاً مهماً، أنهيت اللقاء معه.. فحضر بعده الأسير الآخر وكان اسمه أحمد، فأخبرته أنه تمّ رفض طلبه للاستئناف وأنه لن يحصل على تخفيض في حكمه، فأجابني أنه كان يعلم أن ذلك سوف يحصل، إلاّ أنه أراد المحاولة ليس إلا، وما إن انتهينا من الحديث حول قضيته حتى طلب مني أن أكتب له رسالة لخطيبته، وقال إنّه سيقوم بإملائي الكلمات، فاعتذرت منه متحججة بضيق الوقت، فتفهّم ذلك، ثم غادر المكان، ليأتي بعده أسير آخر هو حسين، وما هي إلا دقائق حتى أخبرته بموعد محاكمته وانتهيت من الحصول على المعلومات التي كان الأستاذ عابدين قد طلبها مني بخصوص ملفه، فتركني وغادر مودعاً.

كان الفارق الزمني بين حضور الثلاثة يقدّر بنحو خمس دقائق كحد أقصى، أما حضور ذلك الرابع، فقد طال جداً، فلم يحضره السجانون إلاّ بعد نحو الساعتين وأكثر، ولقد حضر مكبّل اليدين إلى الخلف، ومكبّل القدمين، وكان هناك ضابط وشرطي يتقدمانه، وشرطيان يسيران خلفه

في حين أن الأسرى الثلاثة لم يكونوا مكبّلين عندما حضروا إلى مقابلتي، ولقد كان معهم شرطي واحد لا غير، وأظن أنه قد كان أحضرهم جميعاً دفعةً واحدة، ووضعهم في غرفة للانتظار بجوار غرفة زيارة المحامين، وبدأ بإدخالهم الواحد تلو الآخر، أما هذا الآخر فلا أعلم لماذا كل تلك الإجراءات الأمنية المشددة والمعقدة، وأخشى أن يكون عقلي قادراً على استيعاب شيء مما يحدث؛ بسبب طول فترة الانتظار بالغرفة وحيدة، وجسدي يتصبب عرقاً من شدة الحر.حضر ذلك الشيء المكبّل ففكوا قيد يديه وأبقوا على قيد قدميه، رفعت عيني لأمعن النظر إليه، وإلى ما كان يجري معه، فقد كنت أرى ما يحدث من خلال الجدار الزجاجي الذي يفصل بيننا، ولم أكن أستطيع سماع ما يقال. إنه قوي الجسد مفتول العضلات بشكل ملحوظ، رأيت وجهاً غاضباً وعينين تقدحان شررا.. ما إن فكوا قيد يديه وجلس حتى رفع السماعة التي توصل الصوت بيني وبين الأسرى.. فقال: السلام عليكم أيتها الأستاذة المحامية.

أهلا.. في الحقيقة يبدو أن الأستاذ عابدين لم يكتب لي أية ملاحظة بخصوص ملف قضيتك، ولكن أعتقد أنك تود أن ترسل رسالة إلى خطيبتك.. هيا قم بإملائي الكلمات حتى أقوم بكتابتها.. قال: أريد أن أمليك كلمات رسالة لوالدتي..فلا خطيبة عندي. وأردف قائلاً: بسم الله الرحمن الرحيم... إلى أمي الحبيبة.. أمي التي سببت لها الألم عندما طوردت من الأعداء.. قاتلت واعتقلت.. أمي التي كنت سبب قلقٍ وألمٍ لها، أحبك يا أماه.. وأدعو الله عز وجل ليلاً ونهاراً بأن يكتب لنا اللقاء.. إن لم يكن لقاؤنا يا أماه في هذه الدنيا الزائلة، فليكن بإذن الله بجنة الخلد عند حبيبك المصطفى عليه أفضل السلام.. أمي أوصلي سلامي لوالدي وأخبريه أنني ما زلت على العهد والوعد، ما زلت رافعاً رأسي راكعاً لربي الواحد القهّار دون سواه...

عفواً يا سيد عبد القدوس، أنا لا أملك وقتاً كثيراً، وأتمنى أن تكتفي بتلك الكلمات، فأنا أريد العودة إلى القدس، إلى مكتب السيد عابدين، والطريق كما تعلم طويلة، وبما أن لا خطيبة عندك، فأظن أن ما كتبته لوالدتك يكفي.. طلبت من الضابط إخراجي من غرفة الانتظار، وتركت عبد القدوس جالساً ينظر إلي، لم يكن وجهه غاضباً كما كان، ولم تكن عيناه تقدحان شرراً، بل كان وجهه باسماً جميلاً وادعاً، وكانت عيناه حزينتين بشكلٍ ملحوظ، وأقسم أنني قد رأيت بداخلهما حزناً لم أر مثله طوال حياتي، ورأيت فيهما شلالاً من الدموع المحبوسة التي تكاد تنهمر. خرجت من المعتقل وجلست داخلَ سيارتي، وأدرت مكيّف الهواء، وانتظرت مجدولين التي لم تنهِ زيارتها إلا بعد أكثر من ثلاث ساعات، فلقد كانت مجدولين تطيل الحديث مع الأسرى وأهلهم، وهي أيضاً زوجة عابدين مدير المكتب وابنة عمه، ما إن وصلت إلى السيارة حتى انهلت عليها كعادتي عتاباً على تأخرها علي، فأجابتني بإجابتها التقليدية، ألم أقل لك أنني سأتأخرّ، وأنني أفضل الحضور بسيارة زوجي عابدين، أولم تصرّي علي أن أركب معك لأنك لا تحبين قيادة سيارتك طوال هذه المسافة وحيدة!...وأردفت مجدولين قائلةً: ألم نناقش هذا الموضوع عدة مرات؟ ودائماً كنا نصل لنفس النتيجة، وهي أنك تفضلين انتظاري على العودة وحيدة إلى القدس. ما إن تركت موقف السيارات متجهةً إلى الشارع الرئيسي المؤدي من مدينة بئر السبع إلى القدس، حتى قالت لي مجدولين: هل رأيت الغضنفر؟ أما زال شامخ الرأس؟ هل كان مكبلاً؟ وكيف كان من حوله من ضباط وجنود؟ هل كانوا يرجفون وهم بجواره؟ هل ضرب أحدهم... لا، لا أظن أنه سوف يضرب أياً منهم، إلاّ إن أساؤوا له، فهو الغضنفر الذي لا يعتدي على أحد، إلاّ إن كان ذلك الأحد ظالماً متسلطاً مثل ذلك السائق الذي كاد يدهسني قبل أعوامٍ طويلة. كم كنت أتمنى لو أنني من زرت الغضنفر حتى أشكره بنفسي على ما فعله

لأجل فلسطين، ولأجل قدسها وأقصاها... لكن بما أنك قد زرته فمن المؤكد أنك أوصلت له سلام الزيت والزيتون.. سلام طيور الحرية، أليس كذلك يا فلسطين؟.

أجبتها: لا ليس كذلك، فلقد نسيت.. ثم إنك قلت الغضنفر وما أدراني أي واحد من تلك الأسماء الأربعة كنت تقصدين، ولقد كنت مشغولةً بالتفكير عندما كنت تتحدثين عن ذلك الغضنفر الذي أوجعت رأسي بحديثك عنه.

فقالت مجدولين: ألم أضع لك دائرةً حول اسمه؟ ألم أكتب لك بجوار اسمه الأحرف الثلاثة التي تدل على أن صاحب هذا الاسم هو شخصية مهمة جداً؟ ألم تري أحرف VIP.. ألم أقل لك إنه...

قبل أن تكمل مجدولين كلامها، قاطعتها قائلةً: لقد ظننت أن ذلك الاسم يعود لخطيب صديقتنا المحامية ساجدة.. ولقد قلت لعبد القدوس أن يمليني رسالةً أكتبها لخطيبته، إلا أنه قال لي لا خطيبة عندي، وبدأ بإملائي رسالة لوالدته، مما جعلني أغضب، ولا أكمل اللقاء معه، وتركته مسرعةً إلى السيارة..حتى...

قاطعتني مجدولين: حتى تجلسي بداخلها مشغلةً جهاز التكييف أيتها الغبية.. أحمد هو خطيب ساجدة، وليس الغضنفر، فالغضنفر لا خطيبة له، ولاحبيبة سوى فلسطين، بقدسها وأقصاها... ليست فلسطين أنت بغبائك الذي يزداد يوماً بعد يوم. وكيف لا تسمحين لعبد القدوس أن يكمل رسالته لوالدته؟! ألا تعلمين؟!.. طبعاً لا تعلمين، فأنت المدللة ابنة الحسب والنسب، كيف تعلمين من هو الغضنفر وأنت ما زلت تسكنين في قصرك العاجي، قصر والدك الثري الذي جعل منك فتاةً غبية رغم ذكائك، وجعل منك شيئاً آخرَ غير ما أنت عليه غير فلسطين.. فلسطين الوطن الذي يحب أبناءه ويرعاهم رغم ما به من ألم... أي ألم؟ أنت لم تتألمي أبداً فكيف ستشعرين بألم الغضنفر؟!.. ألم عبد القدوس؟! صمتت مجدولين بعد ما قالته من كلامٍ قاسٍ وجارح،

صمتت وهي تكاد تبكي.. تبكي على عدم إعطائي الوقت الكافي لذلك الشيء المكبّل حتى يرسل كلماته.. تلك الكلمات الغبية لقد كان انتظاري لوصوله طويلاً، وكان الجو حاراً جداً، ولولا أن ما أضعه من مساحيق تجميل كان غاليَ الثمن، لكانت الحرارةُ قد حولت وجهي إلى لوحةٍ ملطخةٍ بالألوان... مجدولين غبية وأنا أغبى منها؛ لأنني وافقت على دخول كلية الحقوق، وعلى العمل عند زوجها عابدين، ذلك المحامي المثالي الذي يصعب عليه تأمين راتبي في نهايه كل شهر، فهو يترافع عن غالبية القضايا بالمجان، ولا يتقاضى إلا من ميسوري الحال، مثله مثل زوجته مجدولين التي بدل أن تنهي زيارتها للمعتقل وتعود مسرعةً إلى بيتها وأطفالها، تظل تتابع حتى وهي بداخل سيارتي اتصالاتها بأهالي الأسرى لتطمئنهم عن أبنائهم الذين كانت قد أنهت زيارتهم للتو..كلهم أغبياء، وأكثرهم غباءً هو اسمي.. فلسطين... سوف أتخلص من ذلك الاسم، وأسمي نفسي ماسة... جوهرة.. لؤلؤة.. سوف أسمي نفسي أي اسم حتى لو كان الاسم يثير ضحك الناس، مثل بطيخة.. نعم بطيخة سوف أسمي نفسي بهذا الاسم، فهو أفضل من اسم فلسطين التي لا أفهمها ولا تفهمني أبداً.

مضت عدة ساعات وصلنا بعدها إلى القدس، فنزلت مجدولين من سيارتي وصعدت إلى مكتب زوجها، أما أنا فقد بقيت بداخل السيارة قليلاً؛ حتى أتمكّن من الصراخ بعد خروج مجدولين.. صرخت بصوتي العالي بداخل سيارتي.. كلكم أغبياء وأكثركم غباءً ذلك الغضنفر، فلو لم يكن غبياً لما قاتل وطورد من قبل قوات الاحتلال، ولا اعتقل ولا حتى خرج إلي مكبلاً، ولما قال تلك الكلمات لوالدته..فلو كان يحبها لما ابتعد عنها... كلكم مخطئون، أما أنا فلست مخطئة، صرخت صرخةً أخرى، وغادرت سيارتي صعوداً إلى مكتب عابدين، ذلك المكتب المتهالك المتداعي....

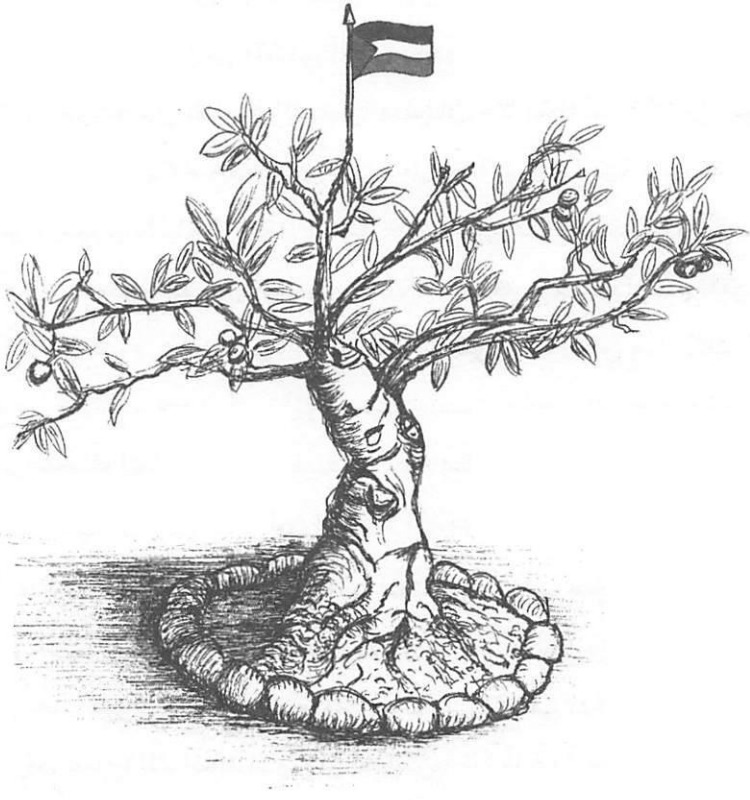

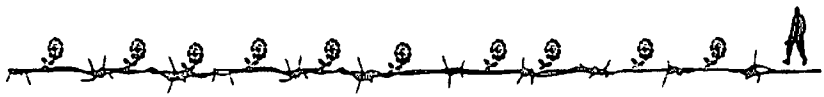

الفصل الثاني
جفّت الكلمات على شفتيّ

جفّت الكلمات على شفتيّ

ما إن دخلت المكتب حتى رأيت الأستاذ عابدين ينظر إلي، وكأنني قتلت أباه وأمه.. هما لم يقتلا، ولكن نظراته نحوي كانت تقول عكس ذلك، تقول إنني قاتلة مجرمة، تقول إنني غبية حمقاء...

عندما رأيت الأستاذ عابدين على تلك الحالة، أدركت أن ما حدث أثناء زيارتي لعبد القدوس أكبر بكثير مما أتخيّل..جلست مع الأستاذ عابدين وزوجته بداخل مكتبه، وهناك بادرني بتلك الجملة التي أدركت معناها لاحقا...

قال: كم أنا غبي..كيف أرسل قطعة من الآيس كريم لشخص عشق الزيت والزعتر، وكم كان الغضنفر ذكياً عندما أرسل لي من زنزانته بعد زيارتك له يطلب استبدال رغيف من الزيت والزعتر بالآيس كريم... ولكن الذنب ليس ذنبي، فأجهزة الأمن الصهيونية ترفض إعطاء تصريح لزيارة عبد القدوس منذ أكثر من عام ونصف، وهي ما تزال ترفض إعطائي أنا تصريحاً أو إعطاء زوجتي مجدولين إذناً لزيارة الغضنفر، وأنت الوحيدة التي تمكنت من الحصول لها على تصريح لزيارته... وحتى عندما حصلت على ذلك التصريح لم أكن متأكداً من أن إدارة مصلحة السجون والمعتقلات الصهيونية سوف تسمح لك بالدخول لرؤيته، فقد كنت أتوقّع منهم المماطلة والتحجّج بالحجج الفارغة لتعطيل زيارتك له.لكني لم أكن أتوقّع قَطُّ أن تكوني أنت من عطّل هذه الزيارة، بل من أفسد هذه الزيارة...حسبي الله ونعم الوكيل..الخطأ ليس خطأك أنت، بل خطئي أنا، كما قال الغضنفر، فما أشد سذاجتي عندما أرسلت قطعة من الآيس كريم لعاشق التراب ومحب الزيت والزعتر... هل تعلمين يا أستاذة فلسطين أن الأسير المقدسي عبد القدوس استطاع إرسال بضع كلمات تخص لقاءك به، كلمات مختصرة ذات معنى عظيم وجبار، لا أحب الآيس كريم أرسل لي خبزةً،

لا ليس خبزةً بل قال أرسل لي رغيفاً بالزيت والزعتر. هل تعلمين أن هذه هي المرة الأولى منذ أكثر من عام ونصف يتمكن فيها الغضنفر من إرسال رسالة شفهية.. مع.. بواسطة.. لا يهم مع من أو بواسطة ماذا.. المهم أنه لا يريدك ولا يريد رؤيتك، فهو يفضل البقاء وحيداً في زنزانة العزل الخاص التي يمكث بها منذ أعوام وأعوام على أن يترك الزنزانة لكي يقابلك، ويرسل من خلالك رسائله لوالدته الضريرة... تلك الوالدة التي فقدت بصرها حزناً على فراق ابنها الوحيد... ذلك الابن البار بوالدته وبفلسطين وقدسها وأقصاها، وأنت يا فلسطين يا خريجة كلية الحقوق والقانون تحرمينه حتى من إرسال رسالة يطمئن بها أمه وأباه، بل ويطمئن بها فلسطين وأبناءها الذين أحبوه وأجلّوا ما صنع ضد أعداء الحرية والتحرر، ضد الاحتلال وقيوده الحديدية التي تكبل كل ما هو فلسطيني. وها أنت يا فلسطين تشاهدين بأم عينيك تلك القيود التي كان الغضنفر قد قيّد بها، قبل أن يدخل الغرفة لمقابلتك، فكوا قيد يديه وأبقوا على قيد قدميه، أما أنت فبدل أن تكوني حلقة وصل بينه وبين أمه الضريرة ووالده الكهل العجوز، كنت قيداً يقيد فمه ويمنعه من النطق والكلام. بل كنت جَلدة جلاّد صوبت نحو ظهره الذّي لم يشفَ بعد من سياط الأعداء، كيف لفلسطين أن تكون غير فلسطين... اسمعي يا فلسطين رغم أنك الوحيدة الحاصلة على تصريح يخوّلك لك زيارة عبد القدوس، إلا أنني لا أريد منك زيارته بعد اليوم، أو بالأحرى هو لا يريد منك التكرّم والتعطّف عليه بتلك الزيارة، وسوف أبحث عن محامٍ أو محامية آخرين، لعلي أستطيع استخراج تصريح زيارة لأحدهما، فما دام قد سمح لك، فإنه من الممكن السماح لمحامين آخرين.. ليتني أنا أو مجدولين نستطيع الحصول على مثل هذا التصريح، لقمت على الفور بزيارته مثلما كنت أفعل سابقاً... من الآن سيقتصر عملك في المكتب على حضور المحاكمات وتجهيز المرافعات، أما موضوع الزيارات الخاصة بالأسرى والمعتقلين فلا علاقة لك به بعد اليوم.

ما إن أنهى الأستاذ عابدين كلامه، حتى قلت له هذا أفضل لكلينا، فأنا لم أكن أحب أصلاً زيارة الأسرى والمعتقلين، فالطريق طويل من القدس حتى معتقلاتهم.. تلك المعتقلات الكئيبة التي كنت ما إن أدخل إليها زائرةً لأسراها حتى أبدأ بِعدِّ الدقائق والثواني لتركها، والابتعاد عنها، أما المحاكم فهي بالنسبة لي أفضل بكثير فهي قريبة من مدينة القدس، وهي أيضاً مكان مكيّف بالهواء البارد على عكس غرف زيارة المحامين في المعتقلات.

ما إن أكملت جملتي حتى قمت وغادرت المكتب تاركةً خلفي الأستاذ عابدين يضرب كفاً بكف، متمسكا بوجهه الغاضب العابس على غير عادته، فالأستاذ عابدين هو بالعادة إنسان بشوش الوجه باسم ضاحك مثله مثل زوجته مجدولين. لحقت بي مجدولين متسائلةً عن رسالة عبد القدوس التي أرسلها لوالدته، وهي رسالة غير مكتملة، فأجبتها أنها مكتوبة بدفتر مفكرتي، وأنّي سأقوم بطباعتها على الحاسوب غداً عندما أحضر إلى المكتب؛ لكي يتم إرسالها إلى والدته..هزت مجدولين رأسها معبّرة بتلك الهزة عن الرفض والقبول في آن واحد.

ركبت سيارتي وعدت إلى منزلي، فقد انتهت ساعات العمل الرسمي بالمكتب منذ أكثر من نصف ساعة، وهو الوقت الذي استغرقه الأستاذ عابدين في إلقاء محاضرته علي..

عندما وصلت إلى البيت، شعرت أن جفاف شفتيّ قد زاد، بل إن شفتيّ كانتا قد أصبحتا عاجزتين عن الكلام، إلاّ أن الأفكار كانت تتقاذف كالأمواج في رأسي، فقد كنت أعلم بقرارة نفسي أنني مخطئة، بل وأنني غبية، ومع ذلك أظهرت لعابدين وزوجته مجدولين عدم مبالاتي بما يقولان، فذلك الشيء المكبّل المسمى الغضنفر قد يكون مهماً بالنسبة لهم، بل قد يكون مهماً لكل فلسطين، ولكنه ليس مهماً بالنسبة لي، أنا فلسطين.. أنا البطيخة التي لا تحب اسمها.

لم أتناول طعامي رغم إلحاح والدتي، وصعدت إلى غرفتي لكي أرتمي على السرير محدقةً بعد ذلك بسقف الغرفة، حالمةً بفارس أحلامي الذي لا أعلم له اسماً أو درباً أمشيه إليه..

يد تطرق على باب غرفتي بقوة، وقبل أن أقول للطارق تفضّل كانت ساجدة قد دخلت وقفزت فوق سريري فاتحةً حقيبتي باحثةً عن رسالة خطيبها أحمد، لم تجد الرسالة التي وعدتها بأن أكتبها على لسان خطيبها، فأنا لم أكن أعلم أن أحمد هو خطيبها وشرحت لها ما وقعت به من خطأ عندما ظننت أن أحمد هو عبد القدوس.رغم أن ساجدة قد تضايقت لكوني لم أحضر لها رسالة من خطيبها، إلاّ أنها تضايقت أكثر بل جنّ جنونها لأنني لم أمكّن الغضنفر من كتابة رسالة لوالدته...فقلت لساجدة: أيعقل أن تغضبي مني على عدم إعطائي الوقت الكافي لذلك الغبي المكبّل بدل أن تعتبي علي لأنني لم أحضر لك رسالة حب وعشق من خطيبك أحمد؟!. فعلاً إن ذلك الغضنفر غبي مكبّل.. مكبّل بحبه لفلسطين، ولحمايته لك أنت يا فلسطين الغبية، يا فلسطين الساذجة البلهاء، ألم تكوني تبكين وتتألمين؟! ألم تكوني تنزفين الدم..لا وألف لا لم تكوني أنت، فتلك الفتاة ابنة الأعوام التسعة التي خرجت معي ومع صديقاتها للتظاهر بمناسبة يوم الأرض لم تكن أنت..صحيح أن اسمها كان مثل اسمك «فلسطين»، إلا أن فلسطين تلك ما عادت فلسطين هذه الجالسة أمامي، ففلسطين الطفلة خرجت من مدرستها لتتظاهر مثل رفيقاتها، إلاّ أنها كانت سيئة الحظ، فقد تعرّضت للضرب بالهراوات والعصي على يد جندي احتلال يركب فوق ظهر فرسه..فلسطين ابنة التسعة أعوام ضربت فبكت، وتجمدت خوفاً ورعباً مما حدث لها، وكادت تدهس تحت أقدام الفرس التي يقودها الجندي الاستيطاني الحاقد، لولا أن جاء الغضنفر الذي كان عمره آنذاك ثمانية عشر عاماً، جاء وانتزعك من تحت أقدام الخيل، واضعاً إياك في إحدى سيارات الإسعاف مغطياً جسدك ذا الثوب الممزق بجاكيته الأزرق، ساتراً بذلك ما عُرِّيَ من جسدك،

منقذاً روحك من موتٍ محقق، هو مكبّل لأنه أحب فلسطين بترابها وقدسها وأقصاها، أحب فلسطين بزيتونها وزيتها وبزعترها البري، أما أنت فلا تحملين من فلسطين سوى اسمها. لقد كنت هناك على الرصيف أبكي على ما حدث معك، من ضربٍ وإهانة، إلاّ أن دموعي جفّت وتحوّل حزني إلى سعادة عندما أنقذك ذلك المكبّل كما أسميته... فهو لم يكتفِ بما فعله معك بل عاد مسرعاً بعد أن وضعك في سيارة الإسعاف ليقفز فوق الفرس ملقياً ذلك الجندي المحتل من فوق ظهرها، وما إن فعل ذلك حتى أمر الفرس لتنطلق بعيداً عن الطالبات المتظاهرات. ألم أقص عليك هذه القصة عندما جئت لزيارتي بالمشفى؟ ألم تحتفظي بجاكيته الأزرق المصنوع من الجينز لسنوات طويلة على أمل أن تعيديه إليه؟؟..ألا تذكرين أنني قلت لك أن عبودا اعتقل وسجن لمدة عامين عقاباً له على ما فعله من أجلك؟، كم أنت غبية يا فلسطين.. بل كم أنت بلهاء وحمقاء أيضاً.

كان كلام ساجدة مثل الصفعات المتلاحقة على وجهي، صفعات لم أستطع صدها بل كنت أتلقاها بصمتٍ وبدون أن أتحرك، فأنا ما زلت أحتفظ بذلك الجاكيت الأزرق حتى اليوم، وما زلت أحلم بصاحبه ليلاً ونهاراً حتى عندما لم أتمكّن من الحصول على معدلٍ عالٍ وعلامات تؤهلني دخول كلية الطب، فقد كان ذلك كله بسبب ذلك الفارس المنقذ المخلص..، وبدل أن أدخل كلية الطب دخلت إلى كلية الحقوق لأصبح محامية، وها أنا ذا بدل أن أدافع عن فارسي أصبحت أوجه له التهم بالغباء لكونه مقاوماً ضحى بعمره من أجل فلسطين.. فلسطين الطين والتراب.. وفلسطين العاشقة الغبية، وشتان بين هذه وتلك.

قلت لساجدة لكي أتأكد.. أتقصدين أن عبودا هو عبد القدوس؟ وأن كليهما شخص واحد لقّب بالغضنفر..؟.

أجابت ساجدة قائلةً: كلاهما شخص واحد، شخص لم تغيّره أعوام السجن ولا قسوة العزلة التي يحيا بها منذ أن اعتقل في المرة الأخيرة، فعبود الشاب المراهق بعد أن قضى عامين في المعتقل لما فعله دفاعاً عنك وعن باقي فتيات مدرستنا، قام بإكمال دراسته في جامعة بيرزيت، لقد درس في كلية الهندسة، وبعد ذلك عمل لمدة عام واحد فاندلعت الانتفاضة الثانية، واندلعت معها نيران المقاومة بداخل عبود الغضنفر، فهب يدافع ويقاوم قوات الاحتلال التي كانت تمارس أفظع الجرائم بحقنا نحن الفلسطينيون.. أما أنت يا فلسطين فقد كنت متقوقعة بداخل منزل والديك في هذا الحي الراقي بعيداً عن الشوارع الملتهبة والمخيمات الثائرة والقرى المقاومة، وبعيداً عن الغضنفر أيضاً... بعيداً قلباً وقالباً.. ألم يخفق قلبك عندما رأيته قادماً نحوك مكبلاً؟ ألم تسمعي هاتفاً يهتف بداخلك قائلاً: إن الحلم أصبح حقيقة، وأن الفارس أصبح بين يديك، لا يفصله عنك سوى جدار زجاجي وبضعة ضباط وجنود؟.. ألم يتألم قلبك عندما تركته وحيداً خلف الجدران السميكة والقضبان الكثيفة التي تحيط بالمعتقل من كل حَدْبٍ وصوب؟؟.

وأردفت ساجدةُ موجهة نحوي صفعةً جديدة عبر كلماتها الواضحة والصريحة، فقالت: ألم يخفق قلبك وتنقطع أنفاسك عندما رأيته، فأنت لم تَري به سوى شيء مكبل بالسلاسل والحديد، مقيد اليدين والقدمين، ألم تري الفرس المجنح وفارس الأحلام، كان بالنّسبة لك مجرد شيء مكبل.. شيء غبي مكبل... فإن كان حب فلسطين والتضحية لأجلها غباءً وفق ما تقولين، فإن عبد القدوس سيد أسياد ذلك الغباء بلا منازع.

تلك كانت كلمات ساجدة لي، أمّا ردي عليها فقد كان بأن سَمحت لدموعي بأن تنهمر، بل إنها انهارت رغماً عني، دموع تنهمر وحلم أصبح حقيقة، وحقيقة أصبحت من المرارة علقماً، ما عدت قادرة على تقبّل طعمه.

قاطعت ساجدة شلال دموعي قائلةً: أين رسالة أم الغضنفر؟ أعطني إياها لكي أوصلها لها، فهي تسكن بجوار منزلنا، وأنا متأكدة أنها تنتظرها على أحرّ من الجمر، لسماع أخبار ابنها، فهي ممنوعة من زيارته منذ أن اعتقل.. أي منذ أعوام وأعوام. لقد كنت أنا في الماضي من يوصل لها الرسائل بعد زيارتي لابنها عندما كنت حاصلة على تصريح يمكنني من زيارته، وكان ذلك منذ أعوام، فمنعت أنا ومنعت من بعدي مجدولين، وأظن أن مجدولين قد منعت عن زيارة الغضنفر منذ ما يزيد عن عام ونصف.. نعم عام ونصف، فأنا أذكر آخر رسالة نقلتها لوالدة الغضنفر بصحبة مجدولين.

جففت دموعي وقلت لساجدة: لن أعطيك الرسالة بل سأذهب بصحبتك لمنزل أم عبود لأعطيها الرسالة بنفسي، وأقرأ عليها كلماتها.. ألم تقولي أنها ضريرة وأنها أصيبت بالعمى حزناً على ولدها.. انتظري حتى أغسل وجهي وآتي على الفور معك لعلي..

ما إن قلت كلمة لعلي.. حتى قالت ساجدة لعلك تكفّرين عن ذنبك، وتستعيدين ذكاءك أيتها الغبية الحمقاء، أو لعلك تعودين فلسطين الطفلة التي كانت تجسد فلسطين الأرض والطين. غسلت وجهي بعد أن أتلفت دموعي مساحيق التجميل التي كنت أضعها عليه، غسلته ولم أعاود وضع أي نوع من المساحيق ولا أدري لماذا فعلت ذلك! ألأن أم الغضنفر ضريرة لا تستطيع رؤيتي، أم لأنني ما عدت أبالي بمظهري الخارجي؟!.

ما إن وصلنا منزل أم الغضنفر حتى طرقت ساجدة الباب، وبدل أن يفتح الباب من قبل أم الغضنفر الضريرة أو والده العجوز الكهل، فُتح الباب من قبل مجدولين التي رحّبت بساجدة ونظرت نحوي بشيء من الغضب، فقلت لها:

لقد أحضرت رسالة عبد القدوس لكي أقراها على والدته ووالده، ألا يكفّر ذلك ولو عن جزء صغير من ذنبي الذي ارتكبته صباح اليوم؟.

هزّت مجدولين رأسها قائلةً: العلم عند الله!، ولكن ما دمت قد حضرت، ادخلي لعل قلب الأم الحزين يسعد بكلمات الرسالة المجتزّاة...

دخلت إثر ساجدة ومجدولين اللتين أرشدتاني إلى حيث تجلس أم الغضنفر، فجلست بجوارها وسلّمت عليها، بل وقبّلت يدها أيضاً، لعل ذلك يشفع لي عندها، وما إن أخبرها عابدين أنني أنا من تمكنت من رؤية ابنها حتى مدّت يدها نحو وجهي وبدأت تتحسس معالمه، وما إن رفعت يديها حتى قالت: تبارك الرحمن بما خلق.. هل رأى ولدي عبود هذا الوجه الملائكي الجميل؟ هززت رأسي من شدة الإحراج، ولكن سرعان ما قلت لها: نعم، لقد رأيت عبد القدوس اليوم صباحاً، وكان بصحةٍ ممتازةٍ، قوي الجسد رافعاً الرأس عالياً، جاعلاً من سجانيه أقزاماً صغاراً، ولقد أرسل لك يا أم الغضنفر ولك يا أيها الحاج أبو عبد القدوس رسالةً طويلةً جداً، ولقد أتعب ابنكم الغضنفر يدي من كثرة ما كتب من كلمات أملاها علي.. لقد قال في أول الرسالة..

بسم الله الرحمن الرحيم... إلى أمي الحبيبة.. أمي التي سبّبت لها الألم عندما طوردت من الأعداء.. قاتلت واعتقلت.. أمي التي كنت سبب قلقٍ وألمٍ لها، أحبك يا أماه.. وادعو الله عز وجل ليلاً ونهاراً بأن يكتب لنا اللقاء.. إن لم يكن لقاؤنا يا أماه في هذه الدنيا الزائلة، فليكن بإذن الله بجنة الخلد عند حبيبك المصطفى عليه أفضل السلام.. أمي أوصلي سلامي لوالدي وأخبريه أنني ما زلت على العهد والوعد، ما زلت رافعاً رأسي راكعاً لربي الواحد القهّار دون سواه...

ما إن نطقت بكلمة «دون سواه» حتى كانت كلمات الرسالة قد انتهت، فهذا ما كنت قد سمحت للغضنفر بقوله، وقمت أنا بكتابته لوالدته ووالده.. على الرغم من انتهاء كلمات الرسالة، إلاّ أنني وجدت لساني ما يزال مستمراً بالحديث، فأكملت قائلةً: أماه الحبيبة آهٍ لو تعملين كم أنا مشتاق لخبزك الذي كنت تخبزينه لنا، وكم أتمنى أن أغمس ذلك الخبز بزيت زيتون أرضنا وزعتر جبال بلادنا.. أماه.. رغم أن حكمي قد تجاوز عدة عشرات من المؤبدات، وعدة مئات من الأعوام، إلاّ أنني واثق بأن الله سوف يجمعنا معًا في القريب العاجل... حتى تكتحل عيناك برؤيتي، ويعود بإذن الله النظر لهما.. أماه يشهد الله أنني صامد صابر موكل أمري لربي، واثق بإخوتي المقاومين الذين قطعوا الوعد والعهد على تحريري وتحرير إخواننا الأسرى والمعتقلين.. أبي الحبيب النصر قادم فحافظ على صحتك جيداً حتى تقوم بقيادة حلقة الدبكة احتفالاً بعودتي، أبي أرجو إيصال سلامي لكل من يسأل عني لكل من عرف ابنك عبد القدوس، وأحبه وسأل عنه، أعدك يا والدي بأن أكتب لك رسالةً طويلةً رداً على رسالتك التي ستقوم أنت وأمي بإملائها لمن حملت لكم رسالتي هذه.. أحبكم وأقول لكم أنه لا حول لنا ولا قوة إلا بالله وحده... ابنكم عبد القدوس.

لا أعلم من أين ارتجلت تلك الكلمات، إلاّ أنني ارتجلتها، وأظن أن عبد القدوس كان سيقول مثلما قلت، عندما كنت أتكلم كان كل من عابدين وزوجته مجدولين وساجدة ينظرون نحوي، فقد كانوا يعلمون أن الكلام الذي أرسله الغضنفر قد انتهى منذ زمن، وأن ما أقوله الآن هو كلام قد اختلقته أنا.. كانت نظراتهم في البداية غاضبةً نوعاً ما، إلاّ أنها تحوّلت إلى نظرات رضا، لقد كنت الاحظ ذلك جلياً على وجوههم جميعاً، أما أم الغضنفر فقد كانت سعيدة جداً، ولم يكن والد الغضنفر يقل عنها سعادة بتلك الكلمات.

الفصل الثالث

عادت الكلمات وعادت معها الذكريات

عادت الكلمات وعادت معها الذكريات

عادت كلماتي لتنطلق من شفتيّ بعد أن قرأت ما قرأت، وقلت ما قلت، بعد أن شعرت وأدركت أنني استطعت أن أدخل السعادة على أم عبد القدوس وأبيه.

بعد ذلك، تركني الأستاذ عابدين وزوجته مجدولين، وبقيت مع ساجدة لنتحدث مع تلك الأم التي كانت تفيض حناناً وذكريات أيضاً، فلقد كانت تحدثنا عن ابنها الغضنفر وكأنه موجود بيننا، فهي لم تكن تتحدث عنه بصفة الماضي بل بصفة الحاضر الموجود، ولقد زادت على ذلك بأن طلبت من ساجدة أن تحضر ألبوماً للصور الفوتوغرافية لابنها عبود.. أحضرت ساجدة الألبوم واستحضرت أنا ذكرياتي عندما شاهدت صور عبود ذلك الطفل، فذلك الشاب وهذا الرجل... ما إن تنقلت بين تلك الصور حتى رأيت بينها صورةً لعبود وهو يرتدي ذلك الجاكيت المصنوع من الجينز ذي اللون الأزرق، رأيته وهو يطوّق جسمه، فتذكرت ذلك الفارس الذي حملني وأنا طفلة صغيرة بين ذراعيه، فحوّل خوفي إلى طمأنينة، وستر جسدي بجاكيته الذي ما زلت أحتفظ به حتى الآن. والآن عادت كل تلك الذكريات دفعةً واحدةً، فأدركت كم أن ذلك الإنسان شخصٌ عظيمٌ بكل ما تحمله الكلمة من معنى، إنه الغضنفر..إنه عبد القدوس من أحب القدس كما قالت أمه، وكما أصبح واضحاً لدي.. أحب القدس، وضحى لأجلها بحريته قبل أن يقيّد بالقيد والسلاسل مقابل أن يخفف ولو قليلاً من القيد المفروض على مدينتنا المقدسة، كم هو شامخ الرأس مرفوع الهامة بين أولئك السجانين الأقزام... وكم هو فلسطيني عنيد ضحى بعمره من أجل قضيةٍ آمن بها وعمل لأجلها طويلاً. ذلك هو الغضنفر، هذا ما قالته أمه، وما قاله عنه كل من التقى به وعرفه، بل هذا ما كنت أردده بيني وبين قلبي.. ذلك القلب الذي أحبه عندما كنت طفلة فمراهقة،

واستهان به ويقيده بعد أن أصبحت شابةً وكبرت... كنت أتمنى أن أعود مسرعةً إلى البيت حتى أضم جاكيته إلى صدري، حتى أعتذر منه، لعله يوصل أسفي إلى ذلك الأسير المقيد.. إلى عبود... إلى الفارس الشجاع. طلبت من أم عبود أن تسمح لي بأخذ إحدى الصور، فوافقت على الفور، وعندما طلبت منها أن تبدأ الحديث لكي أقوم بكتابة الرسالة التي ادّعيت أن عبودا قد طلبها من والده، قالت أم الغضنفر لساجدة: يبدو أنك لم تخبري زميلتك المحامية الجميلة عن طريقة كتابتنا للرسالة التي ترسلها عبر مكتب المحاماة لابننا عبود.

فردت عليها ساجدة قائلةً: نعم يا خالتي هي جديدة وغبية نوعاً ما، إلاّ أنني أظن أنها بدأت تتعلم، بل بدأت تجيد ما تتعلمه.. وأردفت ساجدة قائلةً:

- إن أم عبد القدوس وأباه يقومان بتسجيل كلامهما على شريط تسجيل، ونقوم نحن بتحويل الكلام المسجل على الشريط إلى كلامٍ مطبوع على الورق، أي على الرسالة التي نقرؤها للمهندس عبد القدوس عندما نزوره في المعتقل.. هل فهمت يا أستاذة فلسطين؟ أم أعيد عليك ما ذكرته من كلمات حتى تدخل في رأسك الذي كنت أرغب في تحطيمه منذ قليل، إلا أنك تداركت خطأك مصوّبةً إياه بشكل جيد جداً.

وعدت أم عبد القدوس، أقصد أم المهندس عبد القدوس بأن أقوم بزيارتها في أقرب فرصة، حاملة لها رداً على رسالتها لابنها الغضنفر، وحملت معي شريطاً قامت تلك الأم الضريرة والأب الكهل بتسجيله منذ عدة أيام، سألتها بعد ذلك إن كان هناك أمر إضافي تريد مني إيصاله لولدها المهندس عبود.. فقالت: قولي لعبود أمك تقول ألم يحن الوقت بعد أيها المقاوم المؤمن لكي تكمل نصف دينك؟... فالعرائس بانتظار إشارة من إصبعك حتى أخطب لك إحداهن، أريد أن تكمل نصف دينك وتتزوج قبل أن يأخذ صاحب الأمانة أمانته، وقبل أن تغادر الروحُ الجسدَ يا ولدي.

ودّعت الأم الحنون مقبلةً رأسها ويدها، وودعت الأب الكهل عُمُراً والشاب بروحه المعنوية العالية، التي أجزم أنها روح تعانق السماء فخراً بما فعله ابنه الغضنفر بأعداء أمة الأرض المباركة. حملت بين يدي ذلك الشريط المسجل وصورة الغضنفر متوجهةً إلى سيارتي، وهناك جلست قليلاً مع ساجدة للتحدّث معها.فلقد كنت بحاجة للتحدّث معها، لعلي أعرف منها المزيد عن عبود، عن فارسي الذي كان مفقوداً وأصبح معلوماً لدى الجميع سواي، أنا الغبية الحالمة التي ليست سوى قشرة جميلة لبصلةٍ عفنة من الداخل، هذا ما كنت أحسّ به بعد مغادرتي لوالدة عبود.لم تكن ساجدة راغبةً بالتحدث، قالت لي أنها تعبة ومرهقة من يومها الطويل الذي قضته متنقلة ما بين المعتقلات والمحاكم، ولذلك أوصلتها إلى منزلها وعدت أدراجي إلى منزلي، عدت لألقي نفسي على السرير مرة أخرى، وأحدّق بسقف الغرفة، متذكرةً ما جرى معي منذ صباح اليوم وحتى هذه اللحظة.

ثم قمت أبحث في قاع إحدى خزائن ملابسي عن ذلك الجاكيت ذي اللون الأزرق، وأخيراً وجدته، بعد عناء بل بعد أن قلبت الخزانة والغرفة رأساً على عقب، وجدته، وكم كنت مسرورةً به، وازداد سروري عندما قارنت الصورة بالأصل، ولم يكن بينهما سوى فرق بسيط، وهو أن عبد القدوس كان في الصورة موجوداً، أما الأصل فكان جاكيتاً أزرق أكلت عثة الملابس أجزاءً عدة منه، وعلى الرغم من ذلك فلم يفسد ما فعلته عثة الملابس ذلك الجاكيت، بل جعلني أدرك أن عدم مبالاتي في الواقع الحقيقي الذي يعيشه الناس ويحياه في فلسطين المحتلة، لا يقلّ سوءاً عن فعلة تلك العثة، فعدم

المبالاة هي الوجه الآخر لتلك العثة؛ ولذلك فمنذ اليوم سأحرص على العودة إلى الجذور.. إلى فلسطين الطفلة التي كانت تتظاهر وتشارك بالفعاليات الجماهيرية، فلسطين الطفلة التي أحبّت أميراً شجاعاً، وما زالت تحبه، وما زال هو كما كان شجاعاً مقداماً.

نمت ليلتي ولا أدري كيف نمت، وما إن طلع الصبح حتى تناولت طعام إفطاري، فلقد كنت جائعةً جداً، فأنا لم أتناول يوم أمس غدائي وعشائي أيضاً... تناولت طعامي بشهية مفتوحة على غير عادتي، لاحظت أمي ذلك، كما لاحظت ما حلّ بغرفتي من تناثر للملابس والحاجيات في كافة أرجائها، ومع ذلك فقد بقيت أمي صامتةً ولم تعلّق على ما رأته، وكانت تلك عادتها، فقد تعوّدت على مزاجيتي المتقلبة، فهي ما تزال تعتبرني طفلة لن تنضج أبداً.

وصلت إلى مكتب المحاماة مبكرةً، وهو أمر لم أفعله منذ أن بدأت عملي هناك، فأنا دائمة التأخير، متعجلة في الانصراف ومغادرة المكتب.. رغم وصولي باكراً إلا أن الأستاذ عابدين وزوجته كانا قد وصلا قبلي، ما إن رآني الأستاذ عابدين حتى طلب مني الشريط الذي أعطتني إياه أم عبد القدوس، فقلت له أنني أريد الاستماع إليه لأحوّله إلى رسالةٍ مكتوبةٍ، فأجابني: لا داعي لذلك...

قالها الأستاذ عابدين وكأنه يعلم ما بداخل الشريط، بل وكأنه كان موجوداً مع والدي عبد القدوس عندما سجّلا ذلك الشريط!.. فقلت له:

- كيف تقول أنه لا داعي لتحويل ما بالشريط من حديثٍ إلى كلمات مكتوبة؟.. مكتوبة لكي تقرأ على صاحبها عبد القدوس.. ثم كيف تقوم أمه بتسجيل هذا الشريط قبل عدة أيام، وهل كانت تعلم مسبقاً بزيارتي له، أم أن هناك أمراً لم أفهمه بعد!.

أُدرك يا أستاذ عابدين أنّ ما قمت به أنا صباح يوم أمس، كان أمراً غبياً وغير مبرر، ولذلك حاولت مساءً أن أصلح ما أفسدته صباحاً عبر زيارتي لوالدة عبد القدوس، وأعدك بأنني سأزور عبد القدوس في القريب العاجل، وبمجرد أن يتم تحديد موعد جديد لي، سأتوجّه إلى المعتقل للقاء به، والاعتذار منه وإعطائه كل الوقت الذي يرغب به لأكتب كل ما يقوله...

عندها قاطعني الأستاذ عابدين قائلاً:

- لا داعي لذلك، فلقد حسمنا الأمر يوم أمس، وقد سبق أن قلت لك أنه لم يعد لك أيّ علاقة بزيارة المعتقلين، وأن عملك معنا في المكتب سوف سيقتصر على متابعة القضايا من خلال المحاكم العسكرية الصهيونية فقط لا غير... أعطيني الشريط لكي أستمع إليه، وإن كان بداخله أمر جديد سأكتبه كإضافةٍ على الرسالة الأصلية التي تنتظر منذ عام ونصف في درج مكتبي حتى تصل إلى صاحبها عبد القدوس.

أما بالنسبة لأم عبد القدوس، فهي تقوم وبشكل منتظم كل أسبوعين بتسجيل شريط جديد على أمل أن يصل ما به من كلام إلى ابنها، ولقد كنت أحصل منها على ذلك الشريط، وأحضر لها بعد ذلك بعدة أيام جوابا عليه، أكون أنا قد أعددته بعد سماعي لما قالته هي ووالده عبر الشريط المسجل.

فهي لا تعلم أن ابنها الوحيد يعيش معزولاً محروماً من زيارة المحامين، بعد أن حرم من زيارتها وزيارة والده، وبالمناسبة ما أفعله من الرد على تسجيلاتها بالرسائل المكتوبة، هو أمر كلفني به عبد القدوس، فهو لم يشأ أن يزيد من معاناة والديه، بل أراد أن يخفف عليهما تلك المعاناة، وعندما قلت لك أنه من غير المهم تحويل الكلام المسجل إلى كلامٍ مطبوع، فقد كنت أعني أن أم عبد القدوس وأباه غالباً ما يكرران كلامهما نفسه من دعاء واشتياق منذ عام ونصف، بل منذ أن منعا من زيارة ولدهما.. أي منذ عدة أعوام.

أما الجديد، فقد كان يأتي من هناك، من خلف أسوار المعتقل من الغضنفر الذي كانت رسائله تحوي دائماً ما هو جديد، وبالمناسبة فأنا أستعين برسائله القديمة التي ما زالت بحوزتي لأعيد كتابتها بصيغة جديدة، لعلها تدخل الجديد على والديه، وتدخل معها بعض السعادة والطمأنينة.

كان كلام الأستاذ عابدين واضحاً مباشراً، جعلني أدرك مدى حجم الخطأ الذي أخطأته بحق عبد القدوس، مما جعلني أعاود الاعتذار من الأستاذ عابدين، إلاّ أنه وعلى الرغم من قبوله لاعتذاري، إلاّ أنه رفض أن أعاود زيارة عبد القدوس، وأصرّ على أن أرافقه إلى أحد المحاكم لحضور جلسة هناك، تتعلق بأحد المعتقلين، فقمت بمرافقته إلى المحكمة بعد أن أعطيته الشريط المسجل الذي لم أكن قد استمعت إليه.. وكم كنت حمقاء لأنني لم أستمع إليه ليلة البارحة أو صباح اليوم، قبل أن أحضر إلى المكتب، فقد كنت أودّ سماع ما قالته تلك الأم لولدها الغضنفر.

ما إن انتهت جلسة المحكمة الأولى، حتى حلّ موعد جلسة أخرى لمعتقل آخر، عدت بعدها إلى المكتب لمراجعة أوراق القضايا، إلاّ أنني كنت حاضرة الجسد لا الفكر، فقد كنت أخرج من حقيبتي صورة عبد القدوس كل بضع دقائق لأنظر إليها، لعل صاحبها ينطق ويتحدث إليّ.

بقيت الصورة صامتةً، إلاّ أنني كسرت صمتها وصمتي عندما قمت بالاتصال بإدارة المعتقل الذي يوجد به عبد القدوس لكي أطلب تحديداً لموعد جديد لزيارته، فأنا ما زلت أملك تصريحاً يخوّل لي زيارته متى شئت.

حدّد الموعد، وكان يفصلني عنه يومان ليس إلاّ... ولذلك قرّرت أن أستفيد من هذين اليومين بأن أجمع أكبر قدر من المعلومات عن عبد القدوس، فاتصلت بساجدة طالبةً اللقاء بها بعد انتهاء يوم العمل، ولأنها سريعة البديهة، فقد قالت لي: أعلم أنك طلبتِ لقائي حتى تسأليني عن الغضنفر، ولذلك إن أردت معرفة بعض المعلومات عنه ريثما نلتقي فعليك بجهاز الحاسوب، وما عليك إلا أن تضعي اسمه حتى يتولّى حاسوبك مهمة البوح بما عنده من معلومات عن عبد القدوس. وهذا فعلاً ما فعله الحاسوب بمجرد أن وضعت اسم عبد القدوس، ذلك الاسم الذي يعود إلى مقاوم عنيد، كان يوجّه الضربة تلو الضربة إلى صدر

ذلك العدو الغازي، الذي دنّس أرض فلسطين... لقد أصبح واضحاً لي أن عبد القدوس هو أحد قادة المقاومة الفلسطينية على مستوى الوطن كله، فلم يكن عمل الغضنفر الجهادي محصوراً في مدينة القدس المحتلة، بل كان شاملاً لكل بقعة في أرضنا المحتلة..كان يخطط ويعد وينفذ بنفسه تلك الأعمال المقاومة وحده تارةً، ومع إخوانه المقاومين تارة أخرى.. أصيب عدة مرات، وكاد يستشهد عدة مرات جرّاء محاولات اغتياله، إلاّ أن الله كتب له النجاة، وكتب عليه أن يصبح أسيراً معتقلاً، ولم تكتفِ دولة الكيان الصهيوني بوضعه في المعتقل بل قامت بعزله بعيداً في غرفةٍ خاصة، لا يرافقه داخلها سوى جهازي كاميرا للمراقبة.

ومع ذلك، فقد بقي ذلك الغضنفر يقاوم متجاوزاً سجنه وعزله، فما كانت تمر سنة أو أكثر حتى يتم اقتياده للتحقيق من جديد، تحت ادعاء أنه قام بعمل مقاوم لقوات الاحتلال الصهيوني من داخل غرفة عزله، أما كيف كان الغضنفر يقوم بذلك؟ فلا أحد كان يعلم، بل إن أحداً لم يكن يتوقع أن ينجح أسيرٌ مقيد ومراقب على مدار الساعة من خلال كاميرات التصوير الموجودة داخل زنزانته بأن ينفذ العملية المقاومة تلو العملية. لكنه كان يقوم بذلك، كان يستطيع تجاوز كل الأسوار والحواجز، وأكبر دليل أنه أرسل إلى الأستاذ عابدين يقول له أنه لا يريد الآيس كريم وأنه يريد بدلاً منه رغيفاً من الزعتر والزيتون... كيف تمكّن من إرسال الرسالة بتلك السرعة بحيث أنها وصلت إلى الأستاذ عابدين قبل وصولي إلى مكتبه قادمة من معتقل سجن بئر السبع الصحراوي. واصلت بحثي من خلال الشبكة العنكبوتية، فوجدت أن هناك تقريرا عما حدث يوم كدت أداس تحت أقدام الخيل، فقرأت التقرير ولم أجد به أي شيء يعود إليَّ أنا فلسطين، فكل ما كان قد كتب في ذلك التقرير، أن شاباً مقدسياً اسمه عبد القدوس قام بإلقاء أحد الجنود من فوق ظهر حصانه، وقام بالدوس عليه ثمّ فرّ من المكان بالحصان الخاص بقوات حرس الحدود الصهاينة، لكن ألقي القبض عليه بعد عدة أيام وحكم بعامين جزاءً لما قام بفعله.

ألم يعلم القاضي الذي حكم عليه، أنه أنقذني من الموت المحتم؟، ألم يدر ذلك القاضي العسكري اللئيم أن عبد القدوس أنقذني وأنقذ العديد من الفتيات من ذلك الجندي السادي الحاقد؟؟.. لو كنت أدري لذهبت إلى القاضي لأقول له ما حدث في ذلك اليوم.. ولكن حتى لو قلت له فهو قاضٍ بالاسم فقط، أما فعله فهو فعل الجلادين الغزاة.

أكثر ما لفت انتباهي هو أن من كان يقوم بكتابة تلك الأخبار والتقارير الخاصة بعبد القدوس هي محامية فلسطينية اسمها مريم.. تلك المحامية هي من انفردت بنشر أخبار ذلك الغضنفر، لكنها لم تكتب أي خبر جديد منذ نحو عامٍ ونصف، أي منذ أن مُنع عبد القدوس من تلقي زيارات المحامين. لم أكن أعرف من هي تلك المحامية، على الرغم من معرفتي غالبية المحاميات الفلسطينيات، ولذلك تركت جهاز الحاسوب وتوجّهت إلى غرفة الأستاذ عابدين، لعلي أجد عنده الإجابة، إلاّ أنه اكتفى بأن قال لي أنها محامية فلسطينية... فلسطينية ليس إلا، ثم أردف قائلاً: ماذا حدث معك بخصوص ملف القضية التي ستحضرينها غداً.

لا أدري أكان يفرّ من الجواب أم أنه كان يعلم أن تلك المحامية مريم هي من كانت تكتب أخبار الغضنفر، ولذلك كان جافاً معي بجوابه على غير العادة... أم أنه ما يزل غاضباً مني على ما حدث يوم أمس. لم أجرؤ على القول له أنني قد حدّدت موعداً لزيارة الغضنفر، فلو قلت له لزاد غضبه غضباً، ولحاول منعي أيضاً، فالأستاذ عابدين شخص حازم يرفض الحلول الوسط.. ما إن انتهى وقت العمل، حتى توجّهت لمقابلة ساجدة، فمن المؤكد أنها تعرف من هي مريم، وتعرف المزيد من المعلومات عن عبد القدوس، فلقد أردت أن أعرف عنه كل شيء، حتى أتمكن من فهمه ومن ثم التعامل معه بالطريقة التي تليق بمقاومٍ مثله، بل وتليق بقائد مثله.. والأهم أن أتعامل معه بالطريقة التي تقرّبه مني، وتقربني منه،

فهو فارسي الذي كنت بانتظاره على أحرّ من الجمر. وصلت إلى منزل ساجدة، وهناك جلست معها موجهةً لها سؤالي الأول.. من هي المحامية مريم؟

فأجابتني ساجدة قائلةً:-إنها محامية فلسطينية، درست المحاماة في الأردن، وعملت في أحد مكاتب القدس للمحاماة، إلاّ أنها عملت... ولم تعمل، فقد كان عمل مريم محصوراً في متابعة قضية عبد القدوس، وفي الاهتمام بشؤونه من خلال زيارته في المعتقل، فقد كانت تقوم بزيارته مرتين على الأقل كل أسبوع، ولقد استمرت على هذا الحال لفترة طويلة جداً، حتى أصبحت اليوم تحتاج من يقوم بزيارتها، فهي اليوم أسيرة ومعتقلة في سجن الرملة، إذ حكم عليها بالسجن لمدة عامين ونصف، وأظن أنه لم يبقَ من مدة حكمها سوى عام واحد، أو أقل، ولقد حصل ذلك قبل عام ونصف، وبعدها تمّ منع عبد القدوس من الالتقاء بأي محامٍ..وعندما سمح له من جديد كنت أنت سعيدة الحظ، وكان هو تعيس الحظ بزيارتك له...

وأردفت ساجدة قائلةً:

- قبل أن تسأليني إن كانت هناك علاقة بين عبد القدوس ومريم، أقول لك لا أعلم بل إن أي أحد من الذين يعرفون عبد القدوس أو مريم لا يعلم، فمريم محامية صامتة لا تحب الكلام، وكذلك الغضنفر، فهو صامت كلوحٍ من الثلج، فهو لا يتحدّث إلا بالأمور المهمة فقط... ولا شيء عنده مهم سوى فلسطين، وهنا أقصد فلسطين التراب والطين، وليس فلسطين الأيس كريم.

ولكني أظن والله أعلم أن مريم تحب عبد القدوس، بل وتعشقه أيضاً، فمن غير المعقول أن تدرس فتاة المحاماة لعدة أعوام، ثم لا تمارس هذه المهنة إلاّ من خلال شخصٍ واحد، وهو الغضنفر، حتى ولو كان ذلك الشخص هو...

صمتت ساجدة عن كلامها، وملأت وجهها بابتسامة كبيرة جداً جداً، مما جعلني أغضب، وألقي عليها بحقيبة يدي لكي أحثها على إكمال حديثها.

ألقيت الحقيبة عليها وألقت هي جوابها علي، أن مريم تكون ابنة عم عبد القدوس، ابنة عم الغضنفر فارسك الضائع..

ضاعت مني الكلمات التي كنت أعتقد أنها عادت لي، عندما عادت لي أحلامي التي تبددت الآن، فلقد أصبح من الواضح لي أن هناك سراً كبيراً يجمع ما بين الاثنين، سرّ لا يعلمه أحد.

عاودت مواصلة أسئلتي لساجدة، فقلت لها: لقد تم الحكم على مريم بالسجن لمدة عامين ونصف، هذا ما قلته لي.. ولكنك لم تقولي ما هي التهمة التي وُجّهت لمريم قبل أن يحكم عليها.

أجابت ساجدة بعد أن تحوّلت البسمة التي كانت مرسومةً على وجهها قبل لحظات، إلى ما يشبه بسمة مصحوبة بنوع من التوهان، ولقد كان ذلك واضحاً في عينيها، بل كان جلياً، واتضح لي أنني أصبت بنفس النظرة التائهة، عندما قالت لي لا أعلم، بل إن أحداً منا لا يعلم، فقد اكتفى قاضي المحكمة الصهيونية بالقول أن هناك ملفا أمنيا سريا للغاية، وأنه اطّلع على ذلك الملف الذي قدّمته له أجهزة الأمن الصهيوني، وبناءً عليه أصدر حكمه الجائر على مريم.. حكما دون تهمة، ودون مرافعة من أيّ أحد من المحامين، لأن الملف السري كان يُحْظَر على أي شخص رؤيته باستثناء القاضي... وما دام القاضي هو الجلاد، فقد جلد مريم حكماً بعامين ونصف، وتم كل ذلك خلال دقائق لا أكثر، اقتيدت بعدها مريم إلى المعتقل حيث يوجد هناك في معتقل سجن الرملة عدة عشرات من الأسيرات الفلسطينيات، وبالمناسبة يوجد بين تلك الأسيرات محامية مقدسية أخرى وهي المحامية شيرين العيساوي، ولقد سجنت هي الأخرى ظلماً وبهتاناً مثلها مثل إخوتها الثلاثة الذين يقضون أحكاماً طويلةً خلف قضبان الأسر.

بعد ما قالته ساجدة عن مريم، لم يعد يهمّني سماع أخبار أي أحد آخر، إلاّ أن اسم المحامية المقدسية شيرين العيساوي قد شدّ انتباهي، فقد قرأت عنها كثيراً، كانت أوّل محامية تعتقل منذ بداية الانتفاضة الثانية، انتفاضة الأقصى.. وقد درست المحاماة من أجل الدفاع عن إخوتها الذين كانوا معتقلين داخل سجون الاحتلال، وأظن أن عددهم ثلاثة، فرابعهم كُتب له الاستشهاد على أرض القدس الطاهرة، ولقد كانت شيرين العيساوي محاميةً يقتدى بها بكل ما تحمل الكلمة من معنى، فهي وعلى الرغم من أنها فتاة، إلا أنها كانت أقوى وأشد من ألف رجل، فقد كانت تقول رأيها بشكلٍ واضحٍ وصريح، ولقد تعرّضت قبل اعتقالها لدى قوات الاحتلال الصهيوني إلى الكثير من المضايقات من قبل قوات أجهزة أمن سلطة رام الله تحت حجج كثيرة، من بينها أنها كانت تساعد المقاومين الأسرى عبر تواصلهم معها أثناء زيارتها لهم في المعتقلات، فهي أخت لأسرى ثلاثة ما زالوا رافعين راية الكفاح والثورة ضد الغدو الصهيوني رغم وجودهم في المعتقل.

شيرين العيساوي كانت مثالاً يحتذى به من قبلي ومن قبل العديد من المحاميات والمحامين، فهي فلسطينية كنعانية أصيلة، وكم كنت أودّ لو أنني أحببت المحاماة، لكنت قد قمت بأداء عملي كما قامت به تلك العنيدة الكنعانية شيرين، وكما قامت به مريم.. لكن ما الذي قامت به مريم؟ ومن تكون بالنسبة لعبد القدوس؟.

هذا ما عقدت العزم على معرفته من خلال تقديمي طلباً للحصول على تصريح يمكّنني من زيارتهما، كان ذلك ما قلته لنفسي عندما قمت وأنا عازمة أن أذهب لزيارة عبد القدوس بعد يومين، فعبد القدوس أولاً ومن ثمّ مريم!.

الفصل الرابع
الجمود بلا حركة هو الاستسلام

الجمود بلا حركة هو الاستسلام

ولأن الجمود بلا حركة هو الاستسلام..وبما أنني وجدت معركةً أقاتل فيها، كان عليّ الحركة، وها قد حان موعد زيارتي لعبد القدوس، فتوجّهت إلى مكتب الأستاذ عابدين، وما إن دخلت عليه المكتب حتى كانت زوجته جالسةً كعادتها بانتظار أن تأخذ الأسماء التي من المقرّر لها أن تقوم بزيارة أصحابها في المعتقلات، وتأخذ مع الأسماء الملاحظات التي تخصّ كل معتقل من أولئك الأسرى.

قلت للأستاذ عابدين أنني سأتوجّه بعد قليل لزيارة عبد القدوس، وأنني حصلت على موعدٍ لتلك الزيارة قبل يومين، إلاّ أنني لم أتجرأ على إخباره بذلك خوفاً من أن يرفض، أما اليوم فأنا سأذهب سواء كان ذهابي بصفتي الشخصية أو بصفتي محاميةً تعمل في مكتبه، فإذا ما أراد الأستاذ عابدين أن يفصلني فلا مانع عندي أبداً.

كان الأستاذ عابدين يستمع لما أقوله وهو صامت... وبقي في صمته، حتى بعد أن أنهيت كلامي، وعندها تحدّثت زوجته صديقتي المحامية مجدولين قائلة:

- حسناً اذهبي لزيارته، ولكن قبل ذهابك اجلسي حتى أطلعك على بعض الأمور التي تخص عبد القدوس، وأعطيك رسالة أعدها عابدين من أشرطة التسجيل التي تخص والديه.

جلست على الفور، وكانت على وجهي ابتسامة بادلها الأستاذ عابدين بابتسامة أخرى، مما جعلني أشعر بالارتياح.

وما إن جلست حتى قالت مجدولين:

أولاً: وقبل كل شيء، عندما تزورين عبد القدوس عليك الجلوس عند زيارته صامتةً، فهو لا يحب من تتحدّث أو يتحدّث كثيراً، و يفضل المحامي الصامت، أي أنه لا يحب الأسئلة بأيّ شكلٍ من الأشكال.. فاحذري أن تسأليه عن أي شيء.

ثانياً: إن سألك عن أمرٍ ما، فأجيبي بقدر ما تعرفين، يجب أن تكون إجاباتك مختصرة قدر الإمكان.

ثالثاً: اكتبي ودوّني كل كلمة يقولها مهما كانت، حتى لو اعتقدت أنها غير مهمة، دوّنيها وأحضريها عندما تنتهين من زيارته إلى هنا، وسلميها للأستاذ عابدين.

رابعاً: لا داعي لأن تغضبي إذا ما رفض قبول زيارتك له، فهو كما تعلمين طلب من عابدين بأن يبدّل بالآيس كريم الزيتَ والزعتر.

خامساً: وهو الأهم، قبل زيارته إن ارتاح لك، عليك أن تتعلمي كيف تقرئين الكلمات من الشفاه، دونَ أن ينطقها اللسان... فالغضنفر يقول بعض الجُمل من خلال شفتيه، فراقبيهما جيداً لعلك تستطيعين فهم ما يقوله.. بالمناسبة فالغضنفر يستطيع قراءة الشفاه سواءً كان كلام الشفاه باللغة العربية أو الإنجليزية أو العبرية.. لذلك إن أردت أن تقولي له أمراً وخشيت أن يسجّل من خلال السماعة التي تتحدثين بها إليه، فما عليك سوى أن تطلقي العنان لشفتيك... ولكن دون أن تكونا ملطختين بأحمر الشفاه.. يا آيس كريم.

حفرت كل كلمة قالتها مجدولين في عقلي، وأخذت من الأستاذ عابدين الرسالة، وطلبت من مجدولين أن ترافقني بسيارتي إلاّ أنها اعتذرت قائلةً أنها ستتوجّه اليوم إلى معتقل عسقلان، وهو معتقل يبعد عن معتقل بئر السبع نحو ساعة أو أكثر، ولذلك فطريقها غير طريقي.

صعدت للسيارة مخترقةً الطرقات السريعة، رغبةً مني بأن أصل مبكرةً لكي أمضي أطول فترة ممكنة بصحبة ذلك الشيء المقيّد... أقصد ذلك الفارس العنيد عبد القدوس الغضنفر.. صاحب ذلك الحلم الذي أصبحت متأكدةً أنه لن يكون من نصيبي.

بعد نحو ساعتين من الانتظار، ورغم الحرّ الشديد الذي كنت أشعر به وأنا جالسة خلف الزجاج في غرفة الانتظار، إلاّ أنه بمجرد أن رأيت عبد القدوس قادماً وهو محاطٌ بالسجانين والضباط، ورغم ما كان على أطراف جسده من قيود وسلاسل، فإنني شعرت وكأنه نسمة تحمل معها هواءً نديّاً تخترق السور الزجاجي لتلامس وجهي بقوة.. قوةٍ باردة جعلتني أشعر بنوعٍ من القشعريرة والارتجاف.

جلس الغضنفر بعد أن فكوا قيد يديه وابقوا على قيد قدميه... جلس وهو يحدّق بي، ثم قال بعد أن وضع السماعة على أذنه وفمه.... السلام عليكم.

كدت أقول له أهلا! إلاّ أنني قلت له مجيبةً: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته... عندها ابتسم وقال:

- لقد عدت إلى زيارتي سريعاً رغم أنني لم أتوقع رؤيتك مرةً ثانيةً، وهل عودتك تعني أن هناك أمراً ما؟

أجبته قائلةً: نعم عدت سريعاً لرؤيتك مرةً أخرى، لأنني وقعت بخطأ، فقد كنت أظنك أسيراً آخر، ..أقصد اتضح لي أنك عبد القدوس وليس ذلك الأسير الذي خلطت بينك وبينه، هذا أولاً.. وثانياً لم يبقَ أحد إلا وقام بتوبيخي على ما فعلته معك بالزيارة السابقة... أمك تسلّم عليك وابوك أيضاً.

قاطعني قائلاً: لم أسألك من يسلّم عليّ، بل سألتك لماذا عدت لزيارتي، ألا تعلمين أنك ليس من النوع الذي أفضل التعامل معه، ألم يقولوا لك أنني أفضل الزيت والزعتر لأنه طويل البال ويشبع الجائع بدون أن يتلف من حر الصيف، وبدون أن يسبب الألم لمن يأكله مثل...

لم يكمل عبد القدوس، لكنني علمت أنه يقصد مثل الآيس كريم..

فقلت له: وأنا أيضاً لا أحب الآيس كريم، رغم أن منظري من الخارج لا يشير إلى ذلك، إلاّ أن حقيقتي التي زرعت بداخلي هي أنني فلسطينية اسمها فلسطين، تعشق الزيت والزعتر، وتحب أرضها تماماً مثلك، إلاّ أنني وللأسف لا أملك جراتك وقوتك.. فلذلك لا تحكم علي من مظهري أو من تصرفي الغبي خلال زيارتي الأولى لك.

صمت قليلاً وأجابني وهو ما يزال يحدق بيديه، فهو لم ينظر نحوي منذ أن جلس... وقال:

لكني أعلم من أنت، فأنت محامية تكره المحاماة والحقوق، وفلسطينية لا تحمل من فلسطين سوى اسمها، ولذلك أخبري عابدين بأنني ما عدت أريدك، فإن لم يكن هناك أحد غيرك ليقوم بزيارتي فأنا لا أريد تلك الزيارات.. السلام عليكم.

وضع سماعة الهاتف ووقف قائماً ليتركني مغادراً، إلاّ أن عينيه صعقتني بنظرة بدأت بعدها شفتاي تهمس بالكلمات دون أن تصدر صوتاً.. فتحدثت شفتاي قائلةً: أنا فلسطين تلك الطفلة الصغيرة التي حملتها بين يديك قبل أعوام طويلة.. حملتها منقذاً إياها من حوافر الخيل.. ألا تتذكرني؟ أونسيت ذلك الجاكيت الذي وضعته على جسدي بعدما مزّقت ملابسي، أو أنك نسيت ذلك الفرس الذي قفزت عليه ملقياً من فوق صهوته ذلك الجندي الحقير الذي دسته بحافر فرسه وغادرت المكان... لا تغادر غرفة الزيارة فأنا فلسطين بنت فلسطين الأرض والطين... حتى أنني ما زلت أحتفظ بجاكيتك الأزرق المصنوع من الجينز حتى اليوم، هل تريد مني أن أرسله لوالدتك أم تسمح لي بأن أحتفظ به.

عندها.. أي عندما أنهيت همس شفتيّ من خلف الحائط الزجاجي.. جلس مرة أخرى ورفع السماعة نحوه وقال:

لا تعيديه لأمي بل احتفظي به إن كان لك به حاجة، أو أعطيه صدقةً لمن يحتاج إليه، فما عادت بي حاجة له... ثم صمت قليلاً، بل قليلاً جداً، إلا انني أحسست بتلك الثواني القليلة وكأنها الدهر كله.. لقد صدقت مجدولين تماماً عندما قالت لي أن الغضنفر يجيد لغة الشفاه، إلا انني ورغم أنها قالت ذلك لي وأكّدته، فلم أكن أتصوّر أن يفهم عبد القدوس ما قلته له من المرة الأولى، وأن يجيبني عليه وكأنه كان يسمع كلماتي التي لم ينطق بها لساني، وكم حمدت الله انني لم أقل كلمة أخرى على ما سبق قوله... فلو لم يجلس ويرفع السماعة متحدثاً إلي لكنت قلت له عبر شفتي أنت أميري الذي كنت أحلم به.. أنت أيها الغضنفر عشق حياتي التي لم يكن لها معنىً إلا عندما التقيت بك.. أحبك.. أحبك فهل أنت تحبني أيها المكبّل بالحديد.. لم تقل شفتاي، ولم يقرأ هو، فقال بعد صمته البسيط:

- لو لم تذكري الجاكيت لما تذكرتك قط، فأنا منذ ذلك اليوم أسأل نفسي أين أضعت جاكيتي، ففي ذلك اليوم كنت قد حملت عدداً من الأطفال لأبعدهم عن حوافر الخيل، إلاّ أنك كنت تنزفين دماً وتبكين دمعاً عندما حملتك، فقد كنت مصابةً، ممّا جعلني أتوقّف عن حمل الأطفال بعيداً عن حوافر الخيل وأقوم بإلقاء أحد الجنود عن ظهر فرسه لكي أدوسه وأفرّ بتلك الفرس بعيداً، ولقد لحقوا بي بخيولهم مسافةً طويلة جداً، مما مكّنني من القفز عن ظهر الفرس جاعلاً إياها تواصل جريها بعيداً عني، ولقد تمكّنت من الفرار لعدة أيام...إلا أنهم استطاعوا التعرّف على هويتي، فقد رآني بعض من كانوا يعرفونني، فبدأوا يثرثرون فوصلت ثرثرتهم إلى عملاء الاحتلال فتم اعتقالي وزجي في المعتقل لمدة عامين.

هل تعلمين أن دموعك التي كانت شهقات ألم، وجراحك التي فاضت بالدماء.. هي من دفعني لفعل ما فعلت.. ٣٦٠+٣٦٠=٧٢٠ هي مجموع الأيام التي أمضيتها معتقلاً بعد تلك الحادثة، إلاّ أنها كانت أكثر من ذلك بكثير، فقد تعلمت خلالها أصول حب الوطن، فأنا عندما اعتقلت في المرة الأولى كان عمري لم يتجاوز الثمانية عشر عاماً، وكنت مندفعاً بقوة لمقاومة الاحتلال، إلا أن اندفاعي ذلك لم يكن ينبع من فكر أو من خطة أعددتها مسبقاً، كانت أفعالي ردود أفعال على ما كان العدو الصهيوني يقوم به ضد أبناء مدينة القدس، وما حدث معك هو أكثر مثال، فما قمت به في ذلك اليوم كان ردّ فعلٍ ليس إلاّ...

إلاّ أنني بعد أن أمضيت عامين داخلَ المعتقل، تعلمت الكثير الكثير... تعلمت كيف أقاوم وأقاوم.. وكيف أكون الفعل والحدث لا ردة الفعل كما كنت سابقاً.. دخلت المعتقل شاباً طفلاً وخرجت منه شاباً رجلاً.

دعك مني وقولي لي أيتها الطفلة الباكية، ما الذي حلّ بك بعد أن وضعتك في سيارة الإسعاف، بعد أن اختطفت مني جاكيتي الجديد.. نعم الجديد، كنت قد اشتريت ذلك الجاكيت قبل أيام من تلك الحادثة.

صمت الغضنفر وكفّ عن الكلام، وجاء دوري لأطلق العنان للساني، فقد رأيت الجدار الجليدي الذي كان يحول بيني وبينه يتحطّم إلى قطعٍ صغيرة جداً مع كل كلمة كان ينطق بها، فقلت له:

- أولاً لم أعد طفلة، وما عدت أبكي منذ ذلك اليوم، فأظن أنني بكيت في ذلك اليوم بكاءً يكفي طوال العمر... في ذلك اليوم ضربني ذلك الجندي بعصاه على وجهي مما أدى إلى كسر أنفي، ذلك الأنف الصغير هو من ملأ ملابسي

ووجهي بالدماء الغزيرة، أما ملابسي فقد مزّقت عندما علقت بركاب الفرس، ولم أتمكن من تخليصها إلاّ بعد أن سقطت أرضاً نتيجةً لضربة أخرى من ذلك الجندي الحقير، عندها أدركت أنني سأموت تحت حوافر تلك الفرس، إلاّ أنك حملتني بين يديك وأبعدتني عن المكان.. هل تعلم أنني كنت أسمعك تقول تحيا فلسطين.. الموت للصهاينة؟.. كنت أسمعك رغم بكائي، ورغم ألمي، حتى أنني قلت لأمي عندما حضرت إلى المستشفى أن الشاب الذي أنقذني كان يعرف من أنا، فقد كان يقول تحيا فلسطين.. تحيا فلسطين، وعندها ضحكت أمي وضحك من معها من حاضرين، ولم أعلم سبب ضحكهم إلاّ بعد أعوام، عندما علمت أنك كنت تقصد فلسطين الأرض والطين.. لا فلسطين الطفلة الباكية. في تلك الأثناء، سمعت ضحكة عبد القدوس للمرة الأولى، فقد ضحك وقال: بل كنت أعنيك أنت تحديداً، فقد رأيت فيك الطفلة الباكية الخائفة التي ملأت الدماء وجهها وملابسها الممزقة، رأيت فلسطين الأرض والطين بين يدي، ودفاعاً عن فلسطين التي كانت تعاني بين يدي فعلت ما فعلت... عندما تعودين إلى منزلك قولي لأمك أنه كان يقصد فلسطين الطفلة الباكية، لا فلسطين الخريطة والمكان... فلسطين الجسد النابض بالحياة، لا فلسطين التي ماتت بسبب اتفاقات أوسلو المخزية، وبسبب من باعوها لأعداء الأمة والدين.

قولي لأمك أنني قصدتك أنت لا تلك...

كان كلام عبد القدوس جميلاً رائعاً ومؤثرا لدرجة جعلتني أطلق العنان لعيني لكي تبكي، فقلت له وأنا باكية العينين: أنت تبالغ، أنت تجامل...

فقاطعني سريعاً وقال: أنا من ذلك النوع الغبي الذي لا يرى سوى لونين اثنين في هذه الدنيا.. الأبيض والأسود، ولذلك فأنا وللأسف لا اعرف المجاملة أو المبالغة، بل أنا من ذلك النوع الذي يفضل النقد من خلال الكوميديا السوداء، أو المصارحة من خلال الصراحة، فأنا صريح لدرجة الوقاحة والفظاظة أيضاً.. لا أجامل ولا أبالغ، فقد كنت أنت من أعني بفلسطين التي هتفت لها، وأقسم لك على ذلك.

وأردف قائلاً: ألن تقرئي علي رسالة أمي وأبي؟ فقلت له طبعاً سأقرأ لك ما تريد، وأكتب كل ما تقوله، فأنا اليوم متفرغة بالكامل لك.. لك وحدك... ما إن قرأت السطر الأول من الرسالة التي كان الأستاذ عابدين قد أعدها نيابة عن والدي عبد القدوس حتى أشار لي بيده لكي أضع الرسالة على الطاولة، وأن أقربها نحوه لكي يتمكن هو من قراءتها.. وضعتها كما أشار، وكنت أقلب الصفحة القديمة التي ينتهي من قراءتها واضعةً مكانها صفحةً جديدة... فقرأ كل تلك الأوراق، وقال لقد جاء دورك الآن لتكتبي ما أمليه عليك... وبالفعل قام الغضنفر بإملائي رسالة كلها تفاؤل بغدٍ أفضل.. غد يحمل معه الحرية والنصر.. كانت كلمات تلك الرسالة تجعل من أكثر أهل الأرض تشاؤماً متفائلا... بل وتجعل من نار الفراق والاشتياق برداً وسلاماً من شدة ما تحمل كلماته من معانٍ إنسانية خالصة... لا أدري من أين كان الغضنفر يملك كل ذلك الصبر الثابت والعزم النابض، والمعنويات التي تعانق غيوم السماء.

توقّف بعد أن أنهى رسالته لوالدته، ونظر إلي فنظرت إليه، ونطقت شفتاه دون أن يلفظ لسانه الأحرف، فقالت الشفتان: مريم مريم مريم، فهمت ما نطقت

به شفتاه، وكررت عليه الاسم، فهزّ رأسه بالإجابة: نعم.. وعندها قال:

- إلى أختي الصغيرة الصامدة، أدعو الله أن تكوني بصحة جيدة وأن تكون معنوياتك ممتازة، فأنت زهرة كتب الله لها أن تحيا بين الأشواك... أشواك قاسية ظالمة تحيط بك من كل حدب وصوب، إلا أنك أقوى وأكبر من تلك الأشواك الطفيلية التي ملأت...

صمت عبد القدوس وقال لي من خلال شفتيه.. فلسطين.. فلسطين.. ملأت فلسطين..

فكتبت ملأت فلسطين، وعاثت بها فساداً وإفساداً، أشواك جاءت من كل أصقاع الأرض لتدنّس الأرض التي بارك الله بمسجدها وما حوله... صابرة أنت أعلم، مؤمنة أنت أعلم، وأعلم أيضاً أنك ما عدت الطفلة الصغيرة التي بكت لأيام عديدة، وحزنت طويلاً جداً على استشهاد والدها، والدك استشهد، وهذا شرف وعزة ما بعده شرف وعزة... فيا ليتني استشهدت بدل أن أظل حبيس قبري الاسمنتي المسمى زنزانة العزل الانفرادي.. سلّمي لي على أخواتك وخاصة على تلك المقدسية المشاكسة. صمت عبد القدوس وقال لي مرةً أخرى من خلال شفتيه.. شيرين.. شيرين، فهمت الاسم وكتبت تلك المقدسية المشاكسة شيرين التي كانت وما تزال شوكةً قويةً وعنيدة في أرضنا المباركة، تلك الشوكة التي قرّرت أن تزيح أشواك الظلام التي تحيط بك وبها، إنها مقدسية قوية تستحق كل إجلالٍ واحترامٍ، مثلك تماماً يا أختي الصغيرة.

الفرج قادم.. قادم، وأقسم لك بالله أنه أقرب مما تتخيلين، فبشّري أخواتك الوردات، فالأشواك مصيرها إلى الزوال، والحرية لمن أحب أرض الحرية... بعد

ذلك قال لي عبد القدوس عدة أبيات من الشعر كتبتها، وشرح هو لي معناها، فهي أبيات تعود للشاعر عبد الله بن معاوية عندما كان في سجنه... فقد قال ابن معاوية وحفظ عنه عبد القدوس الذي ردّد تلك الأبيات قائلاً:

خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها ... فلسنا من الأموات فيها ولا الأحياء

إذ دخل السجّان يوماً لحاجة ... عجبنا وقلنا: جاء هذا من الدنيا

ونفرح بالرؤيا فجلّ حديثنا ... إذ نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا

فإن حسنت كانت بطيئة مجيئها ... وإن قبحت لم تنتظر واتت سعيا

اليوم يا فلسطين رأيت في منامي بعد أن صليت الفجر ونمت قليلاً انتظار طلوع الصبح، رأيت حمامةً بيضاء تحمل لي معها رسالةً، وتأخذ مني رسالةً، ذلك ما رأيته في منامي، وهذا ما تحقق سريعاً بوصولك اليوم لزيارتي على عكس ما حدث مع ابن معاوية الذي كانت رؤيته للأحلام الحسنة يتأخر حدوثها، أما رؤيته للأحلام القبيحة فيتعجل في تنفيذها... أنا يا فلسطين على عكس ابن معاوية تماماً فدائماً ما تتأخر رؤياي القبيحة، وغالباً لا تحدث، أما رؤياي للأحلام الحسنة فهي سريعة الحصول لدرجة أعجز عن فهمها... أنهى عبد القدوس كلامه موجهاً إياه إلي، فقال: وداعاً وإلى اللقاء بإذن الله يا زعترةً برية قطفت من جبال فلسطين.. وداعاً يا فلسطين.

لا
تراجع
تخاذل
استسلام

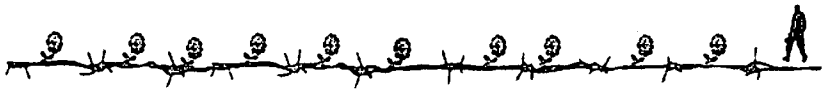

الفصل الخامس
سعيدةٌ أنا ولكن...

سعيدةٌ أنا ولكن...

كم أسعدني حديثي ولقائي عبد القدوس... وكم كنت أرغب بالبقاء معه لولا أن موعد الزيارة قد انتهى، وجاء السجانون بقيودهم ليأخذوه مكبلاً بعيداً عن مرأى عيني.. اما أنا فقد بَقيَت حاضرةً في فكري... وقبل أن تتسارع أفكاري تسارعت كلمات السجان قائلاً لي إن عليكِ المغادرة، فلم يعد في المعتقل من محامين سواي.

تركت المكان حاملةً معي أوراقي وذكرياتي.. ذكريات الطفلة التي حملت بين الذراعين ذكريات طائر الحمام الذي أصبح يحمل الرسائل من ذاك الذي عشقته إلى أمه وأبيه، إلى من قال أنها أخته الصغيرة إلى مريم التي أتمنى ألاّ تكون بالنسبة إليه أكثر من أخته الصغيرة كما قال، سعيدة أنا ولكن ما زال هناك ما يقض مضجع سعادتي.

ركبت سيارتي مسرعةً في طريق عودتي إلى مدينة القدس، وكدت أصطدم عدة مرات بسيارات حولي، أو بعابري الطريق، فقد كنت أفكّر وأحلم، هل يتحرر؟ هل يطلق سراحه رغم تلك الأحكام التي تقدر بعدة عشرات من المؤبدات؟؟

هل يحبني؟... لقد لاحظ أنني كبرت وما عدت طفلةً باكية، نعم فقد ختم حديثه معي وداعاً أيتها الزعترة البرية.. وداعاً يا فلسطين... وفلسطين كبيرة في قلوب كل من أحب القدس والأقصى، وأنا كذلك كبيرة في عينيّ من أعشق وأحب في عيون الغضنفر... غضنفر من أين جاؤوا بهذا اللقب الذي أطلقوه على عبد القدوس، ألم يكن من الأفضل لو أنهم ينادونه عبود..نعم عبود، كبيرة في عيون عبود، أما الغضنفر فهو أسد جسور لا قدرة لي على مجابهة عينيه،

فعينا الأسد قويتان مخيفتان تصاحب نظرتهما الهيبة والرهبة، أما عينا عبود الذي حملني بيديه فهما عينان حزينتان تخبئان داخلهما حباً وعطفاً ودموعاً.

على هذه الحال وصلت إلى القدس، وصعدت إلى المكتب، حيث كان الأستاذ عابدين وزوجته في انتظاري، فقد قلقا علي عندما تأخرت في الخروج من المعتقل، وكانا قد تركا لي العديد من الرسائل النصية على جهاز هاتفي الجوال الذي كنت قد تركته داخل سيارتي؛ لأنه من الممنوع على المحامين إدخال هواتفهم النقالة معهم أثناء الزيارة، وما إن رأيت تلك الرسائل حتى تحدثت مع مجدولين وأخبرتها أنني في طريق العودة إلى المكتب.. وهاهما ينتظران مني البشائر، أقصد الرسائل التي أعطيتها للأستاذ عابدين، فقرأها رغم صعوبة قراءة خطي، أدرك أن بين الرسائل رسالةً مكتوب في أولها إلى أختي الصغيرة، فقلت له هذه الرسالة لابنة عمه مريم الموجودة في معتقل سجن الرملة، فهزّ الأستاذ عابدين رأسه، فهو ما يزال يذكر أنني كنت قد سألته عنها... وضع الأستاذ عابدين رسالة مريم جانباً ولم يقم بقراءتها معتبراً إياها رسالة شخصية، وقام بإعطائها لزوجته مجدولين، طالبا منها أن تحملها معها عند زيارتها مريم في المعتقل.

قاطعت الأستاذ عابدين قائلةً أن عبد القدوس طلب مني أن أوصل تلك الرسالة إلى صاحبتها...

فقاطعني بدوره قائلاً: إن مجدولين تقوم بزيارة مريم كل أسبوع مرة، وهي ملتزمة بهذا الواجب منذ أن اعتقلت مريم، وتلك كانت أوامر عبد القدوس.. ولا أظن أنك تريدين منّا أن نخالف أوامره أو طلباته، ثم كيف لم يقم عبد القدوس برفض زيارتك له.. فقد كنت أتوقع ذلك، وأكاد أجزم به.

فأجبته قائلةً: لكنك لم تضع في اعتبارك أنني أعرف عبد القدوس قبل أن تعرفه أنت، وأن معرفتي به معرفة رفاق درب.. درب المقاومة ضد المحتل، فأنا الطفلة التي اعتقل من أجلها عبود لمدة عامين، ألم تخبرك بذلك زوجتك مجدولين؟ وأنتِ يا مجدولين عندما تذهبين لزيارة مريم أريد أن أحضر معكِ، وسوف أطلب تحديد موعد مع إدارة معتقل الرملة من أجل لقائها...عندها قاطعني الأستاذ عابدين قائلاً:

لا هذا لن يحدث أبداً، ألم تلاحظي أن الغضنفر لم ينطق باسم مريم، ألم تقرئي الأحرف على شفتيه، اسمعي يا فلسطين أنتِ لا تعلمين مدى تعقيد الأمور المتعلقة بالأسرى والمعتقلين، فأجهزة الأمن الصهيوني تراقب وتسجل وتتابع كلّ ما يحدث معهم، فزيارتكِ لمريم ستثير شكوكاً كبيرةً، خاصة أنك تزورين ابن عمها عبد القدوس.. وإذا ما أردت أن تبقي على اتصال مع عبد القدوس من خلال الزيارة فعليك أن تتقيدي بإرشاداتي حرفياً حتى لا تُحرمي من الزيارة.. وحتى لا تحرمي من حريتكِ... كما حدث مع مريم، فهي لم تتقيد بما كنت أطلبه منها، مما حرمها أولاً من زيارة ابن عمها كونها كانت محاميته، ثم أدى إلى اعتقالها بدون تهمة محددة، وها هي تقضي مدة عامين ونصف خلف القضبان بأمر من قاضٍ صهيوني حاقد، كان من الأفضل لو وضع خلف قضبان حديقة الحيوانات، وتحديداً خلف قضبان قفص القرود والسعادين، فهو أهلٌ لهم وهم أهلٌ له.

وأردف قائلاً: الموضوع ليس لعب أطفال أو مغامرة، فالموضوع يا أيتها الزعترة أكبر من ذلك بكثير، ألم يقل لك الغضنفر أنه أسماك الزعترة البرية، إن كان هو لم يقل لك ذلك، فها أنا أقول لك إن عبد القدوس قد أطلق عليك اسم الزعترة البرية بدلاً من اسم آيس كريم.

أم أنك تفضلين لقب الآيس كريم!.. بالمناسبة عبد القدوس هو مقاوم ذو اتجاه إسلامي، وهذا يعني أن مهمتك معه صعبة بل صعبة جداً، ولكن بما أنك قد عرفته قبل أعوام كما قلت فأظن أن ذلك سيسهّل- ولو قليلاً- من مهمتك معه.

أعلم يا فلسطين أن هناك كلمات قد نطقتُ بها تجعلك تحتارين، مثل كلمة أوامر عبد القدوس، أو كلمة طلبات عبد القدوس أو من مثل ذلك اللقب الذي أطلقه عليك «الزعترة البرية»، والأهم هو كلمة مهمتك معه.. ولكن أختصر عليك الطريق ولأنني أثق بك كفلسطينية وطنية مخلصة لقضية تحررنا من قيد الاحتلال، فيجب أن تعلمي أن عبد القدوس هو نهرٌ جارف ينبع من المصب، أي من زنزانة عزله وصولاً إلى أقبية متعددة في مسارب متنوعة، فهو ما يزال حياً قائداً يقود عمله رغم أنف سَجّانه، ورغم أنف أجهزة المخابرات الصهيونية.

لن أطيل عليك اليوم، فقد حان موعد العودة للبيت وترك المكتب، وبالنسبة لزيارة مجدولين لمريم، فسوف نناقش ذلك يوم الغد، أقصد يوم بعد الغد، فغداً الجمعة... يوم الصلاة في المسجد الأقصى المبارك، نلتقي إذاً صبيحة يوم السبت لنعد جداول العمل الذي سوف يبدأ كالعادة يوم الأحد... بالمناسبة غداً بعد صلاة العصر سأذهب لزيارة والدي عبد القدوس بصحبة زوجتي مجدولين، إذا أردت الحضور فأهلاً وسهلاً بك، فأنت قد أصبحت عضواً من عائلتنا... هناك أمرٌ آخر لم تكوني تعلمينه عن علاقتي بعبد القدوس وأمه الضريرة، فتلك المرأة هي خالتي، وابنها عبد القدوس هو ابن خالتي، وهذا كان سبب غضبي الشديد عليك لما فعلته في زيارتك الأولى له، فإن كنت تعرفين عبود منذ زمن، فأنا أعرفه منذ أن ولدت، فأنا وعبود لم نفترق إلا عندما دخل المعتقل أول مرة دفاعاً عنك.. يا زعترتنا البرية.

إلى منزلي عدت... حاملةً سعادتي بذلك اللقاء، وحاملةً معي تساؤلات كثيرة جداً.. فهل أنا من ذلك النوع القادر على المناورة والمغامرة وتحدي جبروت الاحتلال من خلال علاقتي مع عبد القدوس، ومن خلال ما يمثله نهج ذلك الانسان الذي هو اشبه بالبركان دائم الثوران... بركان لا يخبو ولا يتوقف عن إطلاق حممه كلما أراد.. من خلال حديث عابدين الأولي معي، أدركت فعلاً أن هناك أموراً وألغازاً لم أكن أعرف عنها شيئاً.

هل أنا زعترة برية قادرة على النمو والحياة في ظروف قاسية صعبة، أم أنني مجرد فتاة عاشقة لأمير يصعب مجاراته.. أمير نذر نفسه لقضية عجزت عن حلها جيوش عربية ومحاكم أممية، وهل يدرك ذلك المقيد أن الغالبية العظمى من أبناء فلسطين أصبحوا الآن بعد انتهاء الانتفاضة الثانية لاهين تشغلهم أعمالهم محاولين اللحاق بلقمة خبزهم.. أو أنه يريد مواصلة مقاومته مع ثلة صغيرة لا أظنها قادرة على إحداث تغيير، وغير قادرة على استعادة توازن الرعب الذّي فرضته المقاومة إبّان الانتفاضة الثانية.

تلك الانتفاضة التي وصل فيها معدل قتلانا من العدو الصهيوني في شهر واحد ما يزيد عن مئتين وأربعة وأربعين، وكان ذلك الشهر هو الشهر الذي اجتاحت فيه قوات الاحتلال مناطق السلطة الفلسطينية في حملة أسماها الصهاينة السور الواقي، قتلوا خلالها المئات وجرحوا الآلاف المؤلفة من أبناء فلسطين..

ورغم ذلك فقد استمرت الانتفاضة والمقاومة حتى جاء اليوم الذي قرّر فيه رجالات سلطة أوسلو أن يتعاونوا مع المحتل الصهيوني بشكل وقح وفج، متباهين بتعاونهم الأمني مع عدونا، بل كانوا يفاخرون لكونهم استطاعوا إخماد ثورة الانتفاضة والقضاء على المقاومين عبر تصفيتهم جسدياً... وعبر اعتقال المئات منهم وزجهم في سجون سلطة أوسلو... تلك السجون التي بُنيت بأموال أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية، بُنيت لكي تحتضن في أقبيتها رجال المقاومة،

ولكي يمارس فيها أبشع أساليب التعذيب. كان الأوروبيون ومعهم الأمريكان يرون ويشاهدون بأم أعينهم ما تفعله أجهزة سلطة أوسلو برجال المقاومة من تعذيبٍ وتنكيل، ورغم ما كانوا يشاهدونه إلاّ أنهم زادوا من مساعدتهم لرجالات السلطة العبثية حتى تزيد هذه الأجهزة من قمعها لرجال المقاومة.

...زعترة برية أنا!.. لا أظن أنني زعترة برية بل أريد أن أعود لما كنت عليه قبل يومٍ واحد، قطعة من الآيس كريم جميلة المنظر والطعم... خالية من الجوهر والمضمون... نعم فأنا لست من ذلك النوع القادر على خوض غمار البحر الهائج، فأنا أصغر من ذلك بكثير.. أصغر فكراً وعقيدةً وأصغر التزاماً بالقضية الفلسطينية.

حتى عندما كنت صغيرة، عندما تظاهرت بيوم الأرض ويوم القدس، كنت غير مدركة لما كنت أقوم بفعله، فتاة بين الفتيات تهتف بالشعارات مرددةً إياها وكأني ببغاء لا أكثر ولا أقل.. ليتني لم أقابل عبد القدوس ولم أره، وليتني لم أسقط أرضاً، وليته لم يرفعني عالياً، وها هو اليوم يعيد الكرّة مرة أخرى، يريد أن يرفعني من مرتبة الفتاة العادية اللامبالية إلى مرتبة المقاومة التي لا أظن أنني أهل لها...

نمت تلك الليلة بعد أن قررت أن أبتعد عن عبد القدوس، وأن أترك العمل لدى الأستاذ عابدين.. فلا أريد أن يأخذني عشقي لعبد القدوس إلى طريق لا قدرة لي على اجتياز مصاعبه.

يقول المثل «تبيت النار ناراً وتصبح النار عند الصبح رماداً»... مَثل جميل لكن لا ينطبق على حالتي، فأنا نمت يوم أمس رماداً بعد أن أطفأت نار الثورة والمقاومة التي كانت قد بدأت بالاشتعال داخلي، إلا أن ذلك الرماد احتفظ ببعض الجمر داخله مما أعاد إشعال نار الثورة والمقاومة، بل ونار التحدي بداخل عقلي قبل قلبي، داخل روحي قبل جسدي، بل إنني أجزم أن غضب عبد القدوس على الاحتلال وإقدامه على مقاومة ذلك الاحتلال بعزم عظيم ما عاد يعادل عزمي على مقاومة ذلك المحتل القاتل المجرم.

كان من عادتي أن أستيقظ في وقتٍ متأخر من صباح كل يوم جمعة، فلا عمل عندي بذلك اليوم، ولا أحد في البيت يقوم بإزعاجي...إلاّ أن هذه الجمعة ليست كغيرها، فقد استيقظت على أصوات أناس كثر يصيحون مكبرين.. الله أكبر.. الله أكبر.. الشهيد حي عند الله.. كانت تلك الأصوات عاليةً قويةً لدرجة أنني أحسست بها، وكأنها داخل غرفتي وفوق سريري، هناك ضربتني رعشة من الخوف الذي قبض قلبي... غمّ جثم على صدري، قفزت مرتدية ملابسي نازلة سلّم الطابق الثاني وصولاً إلى مدخل الصالة الكبيرة في الطابق الأول.. كان البيت كله مليئا بالرجال والنساء.. مليئا بالذين يكبرون واللواتي يبكين مزغردات... لم تكن تلك حالة بيتنا.. لا بل لم أكن مستيقظة.. لا بد أنني أحلم، هذا كابوس... كابوس أرفضه ولا يمكن أن أقبله... سأستيقظ تاركةً كابوسي وما فيه من فاجعة ومصيبة.. حاولت أن أستيقظ وأن أصرخ عالياً عالياً.. ولكنّي لم أتمكن من الاستيقاظ تاركةً تلك الكوابيس، بل سقطت أرضاً مغميّ عليّ بعد أن أدركت أن ذلك الرجل المسجّى أمامي مضرجاً بدمائه هو والدي.

والدي الذي قتلوه شهيداً هناك في باحة المسجد الأقصى هناك في القدس، حيث كان يصلي صلاة الجمعة.. قتله الصهاينة بعد أن هتف مع الهاتفين: الله أكبر.. القدس لنا ويسقط الاحتلال... هتف ضد الصهاينة الذين دنّسوا باحات الأقصى عندما اقتحموه عنوةً.

أيقظوني من إغمائي ومن كابوسي الذي ما كان كابوساً بل حقيقة مؤكدة لا لُبس فيها... فقد لامست جسد والدي المسجى.. لامست الجسد فتحسّست دماء الوالد الذي ما عاد حياً بين الأحياء الذين ما يزالون يكبرون ويكبرون..

بجوار أمي أجلسوني فبكيت وبكت هي، وبكت كل النسوة وزغردن... لماذا أنا؟ لماذا هو؟ ولماذا اليوم من دون الأيام يستشهد والدي.. والدي أنا، ذلك الوالد المسالم الذي لم يهتم يوماً بالسياسة.. لماذا وألف لماذا؟ كنت أردد بصوت عالٍ معترضة على قضاء الله وقدره ولم يوقف اعتراضي ولا صدمتي سوى صفعة قوية من يد أمي التي أتبعت تلك الصفعة بأن هزت جسدي بيديها بقوة قائلةً... لا حول ولا قوة إلا بالله، هو من أعطى وهو من أخذ.. هو الأول وهو الآخر.. استغفري ربك يا ابنتي وارضي بقضاء الله وقدره... شهيدٌ هو أبوك الآن.. لم يكن الأول على درب الشهادة، ولن يكون الأخير، قومي وقفي على قدميك، فسيتم تشييع جثمانه بعد صلاة العصر.. صلاة لم يبقَ على موعدها سوى بضع دقائق.. نهضت مسرعةً إلى غرفتي مجتازةً من حولي من النساء والرجال لأجعل الأسود رداءً لجسدي.. رداءً ما إن ارتديته حتى أقسمت ألا أخلعه إلا بعد أن أكون زعترةً برية مقدسية.. الأسود منذ اليوم لوني والثأر هدفي.

نزلت من غرفتي مسرعةً لأشاهد جسد والدي الذي كان قد تمّ رفعه عالياً على الأكتاف، رفع فما عدت قادرة على ملامسته ولا على مزاحمة إخوتي الذين كانوا يرفعون جسد والدنا فوق أكتافهم، وقد أحاط بهم العشرات من رجال عائلتنا، وما لبثوا أن أصبحوا مئات بمجرد أن خرجوا من باب المنزل ساروا إلى المقبرة التي تبعد عن منزلنا عدة مئات من الأمتار.. إلاّ أن تلك الأمتار ضمت آلافاً مؤلفة من المشيعين الذين ساروا خلف جثمان والدي... بقيت أنا ووالدتي ومن معنا من النساء ننظر من بعيد نظرةً صامتةً باكيةً مزغردة... كل ذلك حدث سريعاً، بل سريعاً جداً، بلا استعداد وإعداد وبلا تجهيز وتحضير، وكأن أهل فلسطين قد تعودوا على تشييع الشهداء بسرعة لأنهم يعلمون أن هناك المزيد... المزيد من الشهداء الذين ما زالوا أحياءً ينتظرون رصاصات حقد أسود تصوّب نحوهم من قبل محتل غاصب اعتاد على القتل والتدمير.

ونحن الفلسطينيون اعتدنا الموت والشهادة بصمتٍ وألم، لكني لم أعتد ذلك، وأقسم بالله أني لن أسمح لهم بأن يعوّدوني على ذلك.. فالعين بالعين والسن بالسن والبادئ أظلم... لقد بدؤوا هم بحصاد أرواحنا منذ أعوام طويلة، وحان الوقت لأن نحصد نحن بعض الرقاب.. بل حان الوقت لأن أحصد أنا فلسطين المحامية بعض الرقاب.

ظننت أنني سأستيقظ صباح اليوم رماداً من نار الأمس، وإذ بي نار اشتعلت من قبل بركان الألم... آهٍ كم كنت غبية يوم أمس، وكم كنت ساذجةً إذ اعتبرت أن لا علاقة لي بما يجري على أرض فلسطين من مقاومة وثورة، وأن تلك مقتصرة على ما كان يمثله لي عبود الذي يبدو أنه قد أصبح لي قدراً لا مفر منه.

فلسطين تلك الأرض التي كتب الله عليها أن تلد من جوفها الشهيد تلو الشهيد، ها هي اليوم تلدني أنا من جوفها لأكون مثلها..فلسطين الفلسطينية الزعترة البرية.

ما إن عاد إخوتي بعد دفن جثمان أبي الشهيد حتى أدركت أن الأمر قد حسم، فما عاد وجود لأبي على ظهر هذه الأرض، لقد أصبح من ساكني جوفها جسدا، ومن ساكني السماء والجنة روحاً بإذن الله... ها أنا أقول بإذن الله وأكرر لا حول لنا ولا قوة إلا بالله الواحد القهار... يبدو أن الفطرة الطبيعية للإنسان أن يلجأ إلى ربه إذا ما نزلت به مصيبة أو محنة.. ها أنا جالسة بين النساء متوشحةً بالأسود لوناً، وها أنا أقوم لكي أتوضّأ لأصلي معهن... نعم أنا أصلي.. أصلي باكية متذرعةً بأن يغفر الله لأبي ذنوبه وأن يدخله جنة الخلد.. وها أنا أترك الدنيا بما فيها من متاعٍ وزخرف ومن أصباغ تجميل كنت أملأ بها وجهي، لأقف بين يدي ربي الذي كنت قد ابتعدت عنه منذ زمنٍ بعيد، منذ أن تمرّدت على والديّ رافضةً أن أضع الحجاب.. تمردت على والدي الذي دلّلني وهو حي، وها أنا أضع الحجاب وهو شهيد ميت إكراماً له واحتراماً لوقوفي بين يدي الله...

صليت وبكيت ودعوت... وإلى القرآن الكريم لجأت لكي أقرأ السورة تلو السورة من ذلك الكتاب العظيم الذي كان بلسماً لجرحي الدامي، وشفاءً لروحي المتألمة.

جلست مجدولين وساجدة بجواري، جلستا بصمت تقرأ أن القرآن الكريم بعيونهما من خلال مصاحف قد وزّعت على النساء المعزيات والمباركات...

على هذه الحال أمضيت يومي، وبين يدي أمي أمضيت ليلي، وكأنني عدت طفلة كما كنت، فأنا لم أنم بين يدي أمي منذ ذلك اليوم الذي توقفت به كوابيس أحلامي التي كنت أرى بها نفسي أداس تحت حوافر الخيل.. تلك الكوابيس التي لاحقتني لعدة أسابيع بعد أن خرجت من المشفى مضمدةً جراحي التي أصابتني من ذلك الجندي الغاصبه الذي كانت ترعبني نظراته المقيتة... بين يدي أمي التي لم تنم بل كانت تبكي صامتة تارةً وبصوتٍ ناحبٍ تارة... نمت ولم أنم بل لم ينم أحد من أهلي تلك الليلة التي لم يطُل ليلها، فقد أتى صوت المؤذن ليعلن موعد صلاة الفجر.. ذلك الصوت الذي كنت عندما أسمعه سابقاً أضع الوسادة على رأسي لأغطي أذني حتى لا أسمعه، ويقلق منامي.

أما اليوم، فمرحبا بذلك الصوت، وأهلاً وسهلاً بالأذان والتكبير الذي علا صوته قمت فتوضأت ومع أمي وبنات عمومتي صليت.. نعم صليت الفجر للمرة الأولى في حياتي، وكانت صلاة جماعة مع من بقي من النساء في منزلنا... لم يستغرب أحد وقوفي بين النساء والفتيات لأصلي.

بل اعتبرن الأمر طبيعياً، وأظن أنهن اعتبرنه أمراً عابراً بسبب ما حلّ بي من ألم فراق الوالد... لكنه لم يكن أمراً عابراً أبداً بل هو أمر عقدت العزم على أن يكون دائماً وأن يكون جزءاً لا يتجزّأ من طريقة حياتي، تلك الحياة التي خطوت نحوها خطوة التوبة والعودة إلى الله تعالى، وإلى دينه وسنة نبيه محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.

فما إن أنهيت صلاتي حتى توجّهت نحو غرفتي وجمعت ما بها من ملابس لا تتناسب مع الاحتشام الذي يفرضه الدين، وجمعت معها مستحضرات التجميل التي ما عدت بحاجة إليها.

جمعت ما جمعت، وفي سلة المهملات ألقيت الماضي الذي لا عودة له بإذن الله تعالى.

في صباح اليوم التالي على استشهاد والدي، حضرت مجدولين مبكراً ويصحبتها ساجدة لكي تقفا بجواري وتشدا من أزري... وحضر معهما كلام من عبد القدوس حيث قامت مجدولين بالمهمس في أذني قائلة:

عبد القدوس يعزيك ويعزي أهلك بفقدانهم والدك، ويقول لك: لا يكون الزعتر البري زعتراً إن لم يعكش وإن لم يعان من حرّ الصيف القاتل... لكن يمضي الصيف ويبقى الزعتر برائحته الطيبة التي لا تعلو عليها رائحة... زوريني إن هدأت نفسك واحتجت إلى من تتحدثين إليه، فسوف تجدين قلبي قبل عقلي بانتظارك.

جميلة تلك الكلمات التي أرسلها عبد القدوس وهمست بها مجدولين في أذني.. لكنها لم تطفئ نار غضبي وحقدي على ذلك المحتل اللعين الذي صوّب الرصاص وقتل والدي وانتزع من قلبي الفرحة.

فأنا ما عدت أعبأ بالكلمات وكل ما أطلبه هو الأفعال لا الأقوال.. حتى لو كانت تلك الأقوال من الغضنفر نفسه.. الغضنفر الذي يقولون أنه إن قال صدق، وإن وعد حقق.

أمضيت عدة أيام وأنا على هذه الحال من صلاةٍ وقراءة قرآن، بل إنني حضرت درساً للدين قدمته داعية مقدسية عندما حضرت لتقديم واجب العزاء لنا... كنت كلّ يوم أقترب من الله أكثر من اليوم الذي سبقه، وكنت أزداد عزماً على الثأر والانتقام.

أما إخوتي فقد كانوا على الرغم من صمتهم الظاهر، يغلون من الداخل، وكانت أعينهم تخبر أن هناك أمراً جللاً سوف يحدث، أمراً كنت آمل ألاّ يكون ردة فعلٍ غير محسوبة، أو مدروسة.

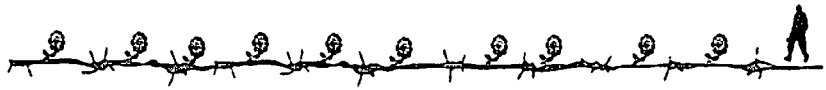

الفصل السادس

قلبٌ ينبض حزناً...

قلبٌ ينبض حزناً...

هذا الحال هو حال قلبي، فما عاد للفرح مكانٍ بعد أن استوطن الحزن قلبي طارداً كل ذكرى جميلة، كان قد سبق لقلبي أن نبض فرحاً بها... فأصبح النبض حزيناً والقلب أحزن.

تسارعت الأيام وطويت شهراً كاملاً منذ أن استشهد والدي.. شهراً تشابهت أيامه، فكلها رمادية اللون أو سوداء، وما عاد للألوان من مكانٍ في بيتنا أو حتى في قلوبنا أو أحلامنا... لم أكن أغادر البيت إلا للتوجّه نحو المقبرة لكي أقرأ ما تيسّر لي من آيات قرآنية على قبر والدي، كنت أذهب وأعود سائرةً على قدمي، فما عدت أحب ركوب السيارة ولا استعمال الهاتف الجوّال الذي كان مغلقاً منذ يوم استشهاد والدي حتى يومي هذا، حتى عندما كانت صديقاتي يعاتبنني لعدم ردي على اتصالاتهن، كنت أجيبهن أنتنّ سوف تتحدثن عن المستقبل، أما أنا فأريد أن أبقى حيةً في الماضي، لا أريد أن انشغل بالدنيا فتضيع الذكريات. فأنا أشعر أن والدي ما زال موجودا في ذاكرتي اليومية، أُكلّمُه هناك وأنا جالسة بجوار قبره، وأكلّمه وأنا أتصفح كتبه التي تملأ أرجاء مكتبه الموجود في منزلنا، حتى أن ذلك المكتب أصبح مكان إقامتي الدائمة، مما جعلني آلف رفقة الكتب الصامتة التي لا تشكو لأحد عما بها من وجع خطّه كاتبوها على صفحاتها.

كم حاولت مجدولين إقناعي بالعودة إلى المكتب للعمل أو للجلوس ومخالطة الناس!، وكم حاولت ساجدة دفعي للخروج من المنزل للقائها، وكم حاولت أمي أن تبعدني عن جوّ الحزن الذي لا يزال يملأ المكان ويعبق برائحة ذكرى والدي الذي استشهد على حين غرّة، فلم يكن أحد منا يتوقّع أو يتخيّل أن يحدث ما حدث، وأن يقتلع عامود الدار وبانيها، لنصبح أيتاماً ونعود أطفالاً صغاراً كما كنا.

على الرغم من أنني أصغر إخوتي، إلا أنني تجاوزت الخامسة والعشرين منذ مدة ومنذ أعوام عدة، و إخوتي الرجال أكبر مني وكلهم متزوجون ولديهم أطفال، إلاّ أننا بعد استشهاد والدي ما عدنا كباراً كما كنا، بل أصبحت دموعنا دموع أطفال تنهمر بمجرد أن نتذكر... وهل كنا نسينا حتى نتذكر!.

في إحدى الليالي راودتني فكرةٌ حمقاء غبية، فقد قلت لنفسي لعل لقائي بعبد القدوس هو ما سبّب لي مصيبة فقد والدي، إلاّ أن تلك الفكرة سرعان ما غادرت رأسي، فقد طردتها بقوة، فلا يمكن أن يكون ما أصابنا من مصيبةٍ إلاّ أمر مكتوب عند صاحب الأمر، عند الله تعالى، أما الغضنفر فقد يكون أسداً جسوراً على أعداء أمة الإسلام، على بني صهيون، لكنه طيب حنون على أهل بيته، على أمه الضريرة وعلى والده الكهل وابنة عمه مريم، لقد أدركت ذلك من خلال الرسائل التي أرسلها معي لهم، فهو حنون طيب القلب لا يضرّ أحداً و لا يعتدي على أحد، فلا همّ له سوى طرد الصهاينة المحتلين من أرضنا.. أرض فلسطين.

أما الفكرة التي راودتني طوال ليالٍ عدة، وأحسست أنني سوف أقدم على تحويلها من مجرد فكرة إلى واقع ملموس، فقد كانت أن أستل سكيناً من المطبخ وأضعها في حقيبتي مخفيةً إياها عن جنود الاحتلال منتظرةً فرصةً لكي أصوّبها نحو قلب أحدهم لكي أنتزعها من جسده فأرديه قتيلاً كما أماتني بقتله والدي، فكل الجنود عندي سواسية، كلهم صهاينة محتلون، لا فرق بين أحد منهم وآخر.. كلهم قتلة غزاة ظالمون... لم تتحول الفكرة إلى واقع، بل بقيت مجرد فكرة تراودني ولا تخطو نحو المستقبل. لا أعني ذلك المستقبل الذي تحلم به أي فتاة عادية، بل أعني مستقبلي أنا.. فلسطين الزعترة البرية.

من المسجد الأقصى مروراً بالبلدة القديمة نحو مكتب الأستاذ عابدين، توجّهت بصحبة مجدولين وساجدة، وهناك جلسنا لكي أبدأ ما كان عزمي قد استقر عليه، فطلبت من الأستاذ عابدين أن يحدد لي موعداً لزيارة عبد القدوس في أقرب فرصةٍ ممكنة.

فقال لي: احضري غداً صباحاً إلى المكتب، وقومي أنت بالاتصال بإدارة المعتقل وحددي موعداً بنفسك، فاليوم قد انتهى، وغداً يوم جديد، أم أنك نسيت أن الصهاينة لا يعملون يوم السبت؟، واليوم كما تعلمين هو السبت، هل بعدك عن المكتب أنساك طريقة العمل... وعدد أيام الأسبوع؟.

هززت رأسي قائلةً: نعم.. لم أكن أعلم ما هو اليوم، ولكني أصبحت أعلم ما هو الغد... وغدًا سأحضر إلى المكتب لإعادة عد الأيام، لعلي أصل إلى اليوم الموعود.

في صباح اليوم التالي، لم أجد لدي القدرة على النهوض من السرير والتوجّه إلى المكتب، فقرّرت البقاء لعل النوم يعيد لي بعضاً من قدرتي، فقد كنت قد أمضيت ليلتي وأنا أفكّر فيما سأقوله لعبد القدوس، ولم أتمكّن من الخلود للنوم إلاّ بعد صلاة الفجر..أمضيت يوم الأحد مواصلةً التفكير بعد استيقاظي فيما ستكون عليه خطوتي المقبلة، وما هي الإمكانيات التي يمكن يوفرها لي الغضنفر من داخل معتقله لكي أقوم بشيء انتقاماً لاستشهاد والدي.

فإما أن يكون الغضنفر يملك الحل والطريقة، وإما أن أستل سكيناً وأمضي في طريقي..

بعد الأحد، جاء يوم الاثنين، حيث توجّهت مبكراً إلى المكتب، وللمرة الأولى أتمكن من الوصول قبل أن يصل الأستاذ عابدين وزوجته مجدولين، فانتظرتهم في السيارة حتى يحضروا.. وانتظرت وانتظرت، لكن أحداً لم يحضر، ولولا اتصال ساجدة بي لما كنت قد علمت بما حدث، فقد قالت لي ساجدة أنّ قوات

الاحتلال الصهيوني داهمت يوم أمس منزل الأستاذ عابدين ومكتبه، واستمرت تلك المداهمة وما صاحبها من تفتيش طوال الليل، وقد أسفرت عن اعتقال الأستاذ عابدين وإغلاق مكتبه بالشمع الأحمر بأمرٍ من جهاز الأمن الصهيوني.

أين انت؟ قالت، فأجبتها: انا هنا أجلس بسيارتي بجوار مكتب الأستاذ عابدين، فقالت: لماذا الانتظار هناك، ألم تري الشمع الأحمر والأمر العسكري الملصق على البوابة؟

فقلت: لا، فأنا لم أنزل من سيارتي منذ أن وصلت، ولم أرَ شيئاً، وأردفت قائلةً: أين أنت حتى آتي إليك؟.

فقالت ساجدة: أنا في الطريق إليك حتى نذهب معًا إلى منزل مجدولين، ونرى ماذا ستفعل في هذه المصيبة التي حلّت عليها بعد اعتقال زوجها وإغلاق مكتبه؟.

دقائق قليلة حضرت بعدها ساجدة، وتوجّهنا معًا إلى منزل مجدولين، ومن هناك انطلقنا في مدينة القدس المحتلة، حاولنا الدخول لزيارة عابدين، إلاّ أن محاولاتنا كلها باءت بالفشل... واستمر الفشل عدة أيام، ولم نتمكّن من زيارة الأستاذ عابدين إلا بعد نحو ثلاثة أسابيع، ولم يتمكن سواي أنا وساجدة من زيارته.. أما زوجته فقد مُنعت على الرغم من كونها محامية، وطبعاً تم المنع بدون إبداء الأسباب.

ما إن التقيت بالأستاذ عابدين حتى أدركت أنه كان منهك القوى، ورأيت أن عينيه حمراوان من قلة النوم.. سألته عن التهمة الموجّهة إليه، وعن سبب اعتقاله.. فقال:

- أما التهمة فلا يوجد.. وأما السبب وراء اعتقالي فيعود إلى عبد القدوس، فما كان مني إلاّ أن قلت للمحققين أن علاقتي بعبد القدوس لا تتعدى علاقة محامٍ بأحد موكّليه.. على الرغم من صلة قرابتي به، ولكني واثق أن السبب من وراء اعتقالي يعود لأن سلطات الأمن الصهيونية تريد إغلاق مكتبي باحثةً عن طريقة قانونية لكي تقوم بذلك.

سألت الأستاذ عابدين إن كان هناك ما يمكن أن نقدمه له من خدمات، إلاّ أنه قال جازماً أنه سوف يتم إطلاق سراحه خلال أيام قليلة على أبعد حد، فلا تهمة فعلية ضدّه، ولا أدلة لديهم، فلا يوجد أصلاً قضية، وأنه سوف يخرج مصمماً على أن نواصل عملنا رغم إغلاق المكتب.

جميل أن يكون الإنسان واثقاً من نفسه، متكلاً على ربه، كما كان الأستاذ عابدين، فعلى الرغم من إنهاكه الجسدي البادي عليه، إلاّ أنه كان يتمتع بمعنويات مقاوم بكل ما تحمله الكلمة من معنى... هذا ما نقلته إلى زوجته مجدولين التي لم تكن تقل عنه قوةً وعزماً وثقةً بأن الله تعالى سوف يجلي هذه الغيمة في القريب العاجل.

ما إن انتهيت من حديثي مع مجدولين، حتى أبلغتها بأنني أريد العودة إلى العمل من جديد، رغم أن المكتب مغلق بأمر أجهزة الأمن الصهيونية، رحّبت بذلك أشد ترحيب، فما كان مني سوى أن قمت بالاتصال بإدارة المعتقل الموجود به عبد القدوس لكي أحدد موعداً لزيارته... تمّ تحديد الموعد، وإلى المعتقل في مدينة بئر السبع الصحراوية توجّهت للقاء عبد القدوس.. هناك في غرفة انتظار المحامين انتظرت وانتظرت، إلاّ أن عبد القدوس لم يحضر، ولم أرَ قيوده ذلك اليوم، فقد تم إخباري بعد مضي عدة ساعات على الانتظار أنه تم نقل الغضنفر إلى معتقلٍ آخر، ولم يحددوا لي اسم ذلك المعتقل الجديد ولا مكانه، فعدت من معتقل بئر السبع إلى القدس وصولاً إلى منزل مجدولين، وأنا أحمل في صدري غضباً على غضب.

حاولت عبثاً الوصول إلى مكان اعتقال عبد القدوس الجديد، لكني لم أتمكّن، بل أبلغت وبشكل رسمي من أن التصريح الذي كان يخوّلني زيارة عبد القدوس قد تمّ إلغاؤه، وهكذا أصبح من المستحيل علي أن أعاود الالتقاء بمن كنت أعدّه موجّهًا غضبي إلى صدر عدوّي.

مضت عدة أيام ونحن على هذه الحال الذي لم تتبدّل إلاّ بعد خروج الأستاذ عابدين، الذي أطلق سراحه بعد مدة خمسة أسابيع أمضاها معتقلاً خاضعاً للتحقيق، خرج دون أن تقدم بحقه تهمة واضحة، بل اكتفوا بإغلاق مكتبه بحجج فارغة واهية من وجهة نظر القانون.. إلاّ أنهم هم القانون وهم الحاكمون الظالمون.

صحيح أنني كنت واثقة أن الأستاذ عابدين كانت له علاقة، وعلاقة قوية جداً مع ابن خالته عبد القدوس، وأن تلك العلاقة معقدة متداخلة ولا تؤدي إلا إلى دربٍ واحدٍ هو مقاومة الاحتلال، فنحن هنا في فلسطين يستحيل أن نكون فلسطينيين حقاً ما لم نقاوم الاحتلال الغاصب، فلكل فلسطيني أسبابه الخاصة أو العامة التي تدفعه للتضحية بجسده وروحه في سبيل الخلاص من هذا الاحتلال البغيض. وها أنا أيضاً أصبح عندي من الأسباب الكثير والكثير ما يدفعني وبقوّةٍ لكي أضحي بجسدي وروحي، لعل تضحيتي تكون ذات أثر في معركتنا ضد الاحتلال.

ما إن عاد الأستاذ عابدين حتى أعدنا ترتيب أوراقنا من جديد، ولقد قمت بافتتاح مكتب محاماة جديد، وعملت على تسجيله باسمي.. ذلك الاسم الذي أغضب الصهاينة الذين أبدوا امتعاضهم الشديد من أن المكتب المقدسي اسمه مكتب فلسطين للمحاماة، كتبوا اسمي على أوراق الترخيص وكتبته أنا على واجهة المكتب الجديد بخط كبير مُلفت، قاصدةً إغاظة الاحتلال والمحتلين الصهاينة الذين ملؤوا القدس المحتلة بقذارتهم النتنة.

من خلال ذلك المكتب، عاودنا ممارسة نشاطنا السابق في متابعة قضايا الأسرى الأمنيين في المعتقلات الصهيونية، وفي المحاكم العسكرية التي لا تعرف عن القانون شيئاً، وتدار بواسطة غيلان قانون الغاب.

تمكّن عابدين من الوصول إلى عبد القدوس، ومن خلاله أدركنا أن الوضع الصحي لعبد القدوس قد تدهور كثيراً، فقد كان عابدين يخفي بداخله سر عبد القدوس.. سر مرضه الذي أصيب به خلال أعوام اعتقاله... فقد كان عبد القدوس يعاني من ضعف شديد في عضلة القلب نتيجة أدوية أعطيت له غصباً أثناء فترة التحقيق التي خضع لها لمدة ستة أشهر، كانت تلك الأدوية تحقن بجسده غصباً لكي يتمكن المحققون من كسر إرادته حتى يقرّ ويعترف على إخوته المقاومين، إلاّ أنه لم يفعل ولم تكسر إرادته رغم ألم قلبه وضعفه، وها هو موجود في مستشفى السجن ممدداً بين الحياة والموت، ممدداً على سرير حديدي مكبّل اليدين والقدمين، وسط حراسةٍ أمنيةٍ مشددة، لكي تمنع جسده من أن يقاوم مرض قلبه، ولكي تحرص على أن تغادر روحه ذلك الجسد المكبّل. كم حاولنا أن نحصل على أمر من المحكمة يُمكّننا من زيارته، إلاّ أن كل المحاولات باءت بالفشل، ولم يتمكن سوى مندوب الصليب الأحمر الذي وصف لنا حالة عبد القدوس بأنها حالة ميؤوس منها، ما لم يزرع له قلب جديد معافى بدل قلبه الذي ما عاد قادراً على الاستمرار بأداء وظيفته بضخ الدم إلى الجسد الذي ذبل وهزل، وأصبح كأنه كومة من العظم يغطيها بعض الجلد ليس إلاّ، ضعف قلب عبود الغضنفر.. ضعف قلب الأسد، ورغم هذا الضعف الذي حلّ بعبد القدوس ورغم ما كان بداخلي من ألم على فراق والدي، إلاّ أنني لم أكن أعلم من أين أتتني تلك القوة الجبارة والعزم العنيد على القيام بحملة إعلامية وشعبية كبيرة من أجل فضح ممارسات العدو ضد عبد القدوس خاصة، وضد الأسرى الفلسطينيين بشكل عام.

في تلك الفترة، كنت على اتصال يومي مع أمه الضريرة ووالده العجوز، وكنت قد حولت نبض قلبي الحزين إلى نبضٍ لا هدف له إلاّ أن يساند نبض عبود وأمه التي بدأ المرض نتيجة قلقها على فلذة قلبها الغضنفر يؤثّر عليها كثيراً، فقد دخلت المستشفى بعد أسابيع من وصول خبر مرض ولدها عبد القدوس إليها. فما عاد الأستاذ عابدين قادراً على كتمان سر أصبح العالم كلهُ يعلمه، وأصبحت كل الوسائل الإعلامية تتداوله، ففضل أن يخبرها بنفسه وفضلت أن أكون إلى جوارها عندما سمعت منه الخبر.هناك وهي على سرير الشفاء، زرتها وقلت لها كاذبةً أنني تمكنت من زيارة عبد القدوس، ونقلت لها رسالةً على لسانه كما ادعيت... بدأت الرسالة قائلةً:

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى أبي الطيب وأمي الحنون.. أعلمكما أنني وبحمد الله بدأت أشعر بالتحسّن وأظن أنني أصبحت قادراً على استرداد قوتي وقادراً على الوقوف على قدمي من جديد، ولذلك يا أماه وحتى لا أطيل عليك في رسالتي هذه كما سبق وتعودت مني خلال رسائلي في الأعوام الماضية، فسأختصر الموضوع وأطلب منك أن تقومي بتمكيني من إكمال نصف ديني، وخطبة الفتاة التي أحب وأهوى.. أبي الطيب وأمي الحنون... أرجو منكما أن تقوما بخطبة المحامية فلسطين في أسرع وقتٍ ممكن، فقد شفاني الله وعافاني من مرضي، فاتركي عنك يا أمي الكسل، وقومي من فوق سرير المرض حتى تخطبيها لي.. ها هي واقفة أمامك تمسك بيدها الرسالة التي أرسلت، وتقرأ الكلمات التي كتبت.

ابنك المحب والمتوكل على الله عبد القدوس الغضنفر. نعم عدت يا أماه غضنفراً قوي القلب والعزم بفضل ربي. فعودي أنت أيضاً قوية القلب وعجّلي بخطبة فلسطين قبل أن يخطبها غيري...

عبد القدوس

عندما كنت أقرأ ما كتبت بخطّ يدي، ومن بنات أفكاري، كان الأستاذ عابدين ومجدولين وساجدة ووالد عبد القدوس ينظرون إلي تارةً وإلى أم عبد القدوس تارةً أخرى...فقد قامت متحديةً ألم مرضها لتسألني عن رأيي في الزواج من ابنها، فقلت لها إن أردت سماع الرد فلتحضري لطلب يدي من أمي وإخوتي.

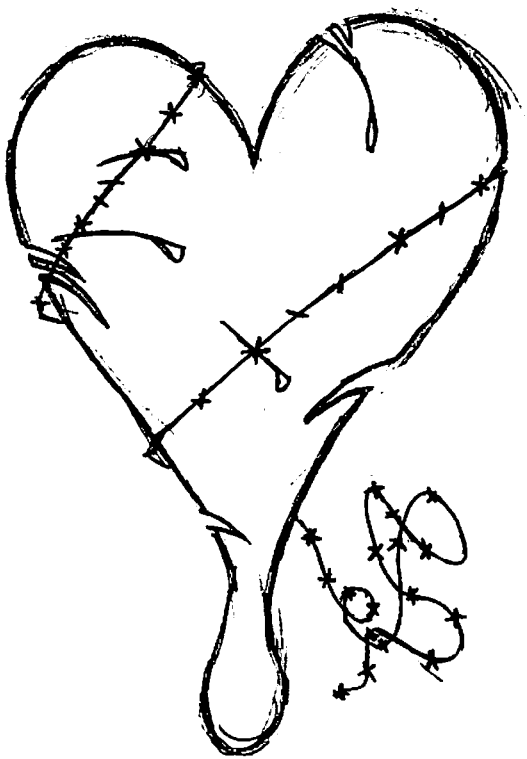

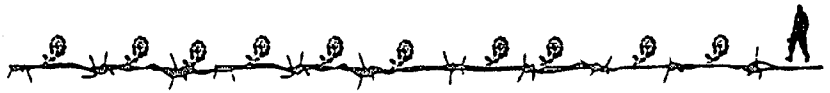

الفصل السابع

بالأمل وحده تحيا القلوبُ المليئة بالإيمان...

بالأمل وحده تحيا القلوبُ المليئة بالإيمان...

لم يكن أحد يجرؤ على التشكيك بإيمان أم عبد القدوس، تلك الأم الضريرة التي بدأت تذبل شيئاً فشيئا أمام عيني هناك بالمستشفى، مما دفعني لكي أعطيها جرعةً من الأمل لعلها تتمكن من الانتصار على مرضها بإذن ربها الذي كانت وكنا نتضرع له.

ما هي إلا أيام معدودة حتى استعادت الأم عافيتها وغادرت المستشفى على أمل أن ولدها قد تحسّنت صحته، وعلى أمل أن تحقق حلمها من خلال تزويج ذلك الولد.

هناك في السجن المسمى زوراً وبهتاناً بالمستشفى التقى مندوب الصليب الأحمر بعبد القدوس وهو ما يزال يصارع الموت غير قادرٍ على التحرك بسبب قيود السلاسل، وغير قادر على الكلام بسبب قلة الدم المتدفق.

في ذلك اللقاء، حمل مندوب الصليب الأحمر رسالةً شفهية من الأستاذ عابدين يخبره فيها بما حدث، ويسأله عن رأيه فيما جرى...ما إن انتهى مندوب الصليب من النطق بتلك الرسالة الشفوية، حتى بدأ عبد القدوس بالنطق بكلمات كان يصعب عليه إخراجها من جوفه...

قال صاحب الجسد المكبّل:

- إن كانت هي قالت ذلك، وإن كانت تعنيه فعلاً، فأنا يشرّفني أن أطلب من والدي ووالدتي أن يقوما بخطبتها، وأشكرها على كل ما فعلت، وأستحلفها بالله إن ساورها الشك في صواب ما قامت به أن تعدل عنه، أي إن لم تكن ترغب بالزواج مني فذلك حقها الذي لا يمكن لأحد إجبارها عليه.

عابدين.. فلسطين أيتها الزعترة البرية..اسمعا جيداً قولي، فأنا أصبحت أدرك أن جسدي أصبح غير قادر على تحمّل ضعف قلبي ومرضه، ولذلك أرجو أن نكتفي في هذه المرحلة بالخطبة فقط، فإن كتب الله لي النجاة، نحوّلها إلى عقد للزواج، لتبدأ بعدها الدعاء لله بأن يفك أسري بعد أن شفائي.

شفائي... تلك الكلمة علمها عند ربي الذي أوكلت له أمري، ما دمت لم أشف فلتكن الخطبة.. لا وألف لا لإخبار أمي عن وضعي الصحي الصعب.. ونعم وألف نعم لإدخال الأمل والبهجة إلى قلبها الطيب... شكراً لكم.. أخوكم عبد القدوس.. طالب يد الزعترة البرية فلسطين... الغضنفر.

تلك الكلمات قرأها لنا مندوب الصليب الأحمر من ورقة كانت معه، فهو لم يكن قادراً على حفظ كل ما قاله الغضنفر، لذلك غامر متحدياً إدارة مستشفى المعتقل وكتب ما كتب رغماً عنهم.. أما نحن فقد كنا جالسين ثلاثتنا أنا وعابدين وزوجته مجدولين في سيارتي خارج أسوار المعتقل، وما إن خرج مندوب الصليب حتى حصلت على الكلمات والورقة التي أدخلت السعادة إلى قلبي رغم أنه لم يكن بها كلمة واحدة لها علاقة بالحب أو الغزل.

لم أكن وحدي من انتبه إلى ذلك، فقد علّق عابدين قائلاً أنه لم يسمع طوال حياته عبد القدوس يتحدث عن أي نوع من أنواع الحب، إلاّ نوعاً واحداً ووحيداً هو حب فلسطين تلك التي أحبها وعشقها وعشقته.. ويبدو أن ذلك الأسد الغضنفر كان يقصد فلسطين الزعترة البرية، وليس فلسطين الطين والتراب.. ضحك عابدين وضحكت أنا ومجدولين أيضاً.. ضحكنا لأننا كنا أيضاً نبحث عن أمل لنحيي به قلوبنا المليئة بالإيمان والأحزان.

بعد أن أصبحت كذبتي التي كذبتها على أم عبد القدوس حقيقة، صار واجباً علي أن أخبر أمي وإخوتي بما حدث.. وهذا ما فعلته فعلاً، جمعتهم جميعاً في اليوم الذي تلا تلك الزيارة التي قام بها مندوب الصليب الأحمر، وعاد منها حاملاً طلباً رسمياً من عبد القدوس لخطبتي والارتباط بي جمعتهم وقصصت عليهم قصة الطفلة الصغيرة التي رفعها الشاب المقاوم من تحت حوافر الخيل القاتل.. تلك الطفلة التي كبرت ونضجت وهي تحلم بذلك الأمير الذي يأتي راكباً فوق فرسه لخطبتها.. ها هو اليوم فوق سرير الموت بمستشفى المعتقل يطلب خطبتي بعد أن طلبتها أنا منه بنفسي... تلك قصة الطفلة، قصة فلسطين وقصة عبد القدوس الذي أحبّ فلسطين فقاتل من أجلها، وهو اليوم يدفع ثمن ذلك بعد أن ضعف جسده وشارف على الموت.

إن وافقتم على طلبه لخطبتي وافقت أنا، وإن رفضتم طلبه لخطبتي فسأحترم رأيكم...

رأيكم؟.. قلتها وكانت دموعي تعبر عما عجزت كلماتي عن قوله، فقد كنت أود أن أقول أنني أحبه.. أعشقه أكن له احتراماً وتقديراً عظيمين.. فهو إنسان عظيم أحبّ فلسطين الأرض والطين، ويكفيني فخراً حبه لأرضه ودفاعه عنها لكي أرتبط به.

تركتهم مداريةً دمعي مسرعةً إلى غرفتي، فقد كنت أعلم أن ما طلبته منهم هو ضربٌ من ضروب الجنون، فكيف لهم أن يقبلوا زواج أختهم الصغرى، الأخت المدللة من ذلك المقاوم المعتقل والذي يقضي حكماً بالمؤبد لعدة عشرات من المرات، وفوق ذلك كله فإن ذلك الأسير يرقد على سرير المرض ينتظر ملك الموت ليقبض روحه إذا ما قضى الله وأراد، صحيح أنني قلت لهم أنني أحبه.. لكن أمي وإخوتي يحبونني أيضاً، بل ويحبونني لدرجة تجعل من رفضهم طلبي أمرًا مستحيلاً.

الجنون هو ما نحن عليه في فلسطين، تلك الأرض المجنونة التي كُتب عليها ورغم ما تحمله من قدسية أن تكون أرضاً للموت والحروب، أرضاً يستعبد بها الفلسطيني الحر، يعتقل ويعذّب، وهناك بعيداً في سجون الصحراء يموت لتلقى جثته في مقبرة الأرقام.. تلك المقبرة التي تحتضن في جوف أرضها مئات من جثامين الشهداء الذين استشهدوا على مدى أعوام الصراع مع هذا العدو الصهيوني المقيت... هل سأجن إن رفضوا طلب زواجي، أم سأصمت؟ هل سأدافع عن حبي.. عمن أحببت... عن أميري الغضنفر؟ هل سأسعده كما أسعدت أمه الضريرة أم ماذا؟.

عندما تركتهم جالسين في الصالة لم أسمع من أي أحد منهم ولا كلمة، فلم يقل أحد منهم كلمة مجنونة... غبية.. طفلة.. مدللة... كلهم كانوا صامتين بلا كلام ولا حراك، حتى أنا الآن في غرفتي صامتة بلا حركة، بل بلا نفس يخرج من صدري... الصمت قاتل، ليتهم صرخوا، غضبوا ...ليتني قتلت شهيدةً بدل أبي لما كنت في هذا المكان ولا توقف الزمان.

إلى غرفتي جاءتني أمي وبصحبتها أخي الأكبر، نظرت إلى وجهيهما فلم أستطع معرفة ما تخفيه تلك الوجوه عنّي، ولكن ما إن بدأ أخي يتحدث حتى أدركت كم أنا غبية وساذجة.

بعد أن جلس أخي إلى يميني، وجلست أمي إلى يساري، بدأ أخي كلامه قائلاً:

أولاً نحن موافقون فلا تقلقي، وتوقفي عن هز قدميك والقرص على يديك، ثم خذي منديلاً وامسحي عرق جبينك يا أيتها القطة الصغيرة... حتى صباح اليوم كنت لا أزال أعتبرك فتاة طفلة، لم تكبري بعد، بل إنني اعتقدت أن وفاة والدنا سوف تجعلك تصرين على البقاء طفلة.. إلا أنك وخلال أشهر قليلة جداً استطعت أن تكبري عقلاً وفكراً.. أعلم يا أختي الصغيرة أن اختيارك للارتباط بالمقاوم المجاهد عبد القدوس قد يكون مردّه إلى أمرين اثنين لا ثالث لهما.

أولهما إما أن تكوني قد فقدت عقلك وأصبت بالعته والجنون لمجرد التفكير بالارتباط في مثل تلك الظروف التي لا يمكن وصفها من شدة قسوة حياة صاحبها و مأساويتها.

وثانيهما أنك أعقل وأشجع منا جميعاً باتخاذل مثل هذه الخطوة العظيمة.. وهنا أقول لك أننا أدركنا أنك أقدمت على هذه الخطوة بعد تفكير وتدبير يدلان على إخلاص النية لله عز وجل، ولذلك توكلي على الله وأبلغي أم الغضنفر لكي تحضر من تشاء لتطلب يدك لولدها.

أختاه، أظن أنك سمعت عندما قلت أم الغضنفر.. وهذا يعني أنني أعرف عبد القدوس جيداً، فأنا وبطلب من والدنا كنت قد أوكلت لعبد القدوس محامياً عندما اعتقل بعد ما فعله لك في ذلك اليوم... يوم حوافر الخيل التي كادت تدهسك تحتها.. وكم حاول المحامي الدفاع عنه مبرراً ما فعله على أنه حماية لطفلة من بطش جندي احتلال قذر، إلاّ أن حكم القاضي وقع، ووقع معه عبد القدوس معتقلاً لمدة عامين.. وما إن أمضى عبد القدوس حكمه حتى تواصلنا معه، وقمنا بزيارته أنا وأمك وأبي رحمة الله عليه.. أما أنت فلا.. لأننا كنا نخشى عليك من تلك الزيارة، نخشى أن تعود لك ذكريات ذلك اليوم وتعود معه تلك الكوابيس التي كانت لا تفارقك أبداً طوال أيام وليالٍ عديدة، ولذلك فقد فعلنا ما فعلناه بتكتّم شديد حتى لا نفتح جرح الكوابيس مرة أخرى.

أما وها أنت قد كبرت، وما عدت قطة صغيرة بل أصبحت لبؤة تريد الارتباط بأسدٍ غضنفر، فلا أظن أن هناك خوفا عليك من كوابيس الماضي، ولا حتى من أحلام المستقبل.... ذلك المستقبل الذي علمه عند رب العالمين،

قومي يا أختاه واتصلي بحماتك، فأنا أدعو الله أن يشفي لها ولدها، وأن يجمعك به زوجاً بعد أن يتحرّر بإذن الله الذي لا يخيب رجاء من ترجّاه وطرق بابه.

قمت وقبّلت وجنتي أمي ورأسها، بل يديها أيضاً وزدت على ذلك بأن قبّلت يدي أخي ورأسه أيضاً... شكرتهم على ثقتهم بي وبالقرار الذي اتخذته، شكرتهم لأنهم دعموني وشجّعوني.. بل وشكرتهم على أنهم لم يشركوني في زيارتهم لعبد القدوس بعد خروجه من المعتقل، فلو أشركوني بتلك الزيارة لكانت الأمور قد تغيّرت، إما بعودة الكوابيس أو بضياع الحلم الجميل والفارس الهمام.

نزلت من غرفتي مع والدتي وأخي الأكبر لكي نجلس مع باقي إخوتي ونتبادل الأحاديث، فاجمعوا على أن تتم الخطبة بصمتٍ وبلا حفل وضجيج، فوالدنا لم تمر على وفاته شهيداً سوى بضعة أشهر، فوافقت على ذلك وطلبت منهم أن تقتصر الخطبة على حضور أهل عبد القدوس وحضور إخوتي وبعض المقربين مثل الأستاذ عابدين وزوجته مجدولين وساجدة... وهذا ما حدث بفضل الله تعالى.

فقد حضر الأستاذ عابدين في نهاية الأسبوع مصطحباً معه أبا عبد القدوس وأمه، وأحضر معه أيضاً زوجته مجدولين وصديقتي المحامية ساجدة.. وأحضر معه مفاجأة ما كنت أتخيل حضورها أبداً.. مفاجأة نسيتها منذ أشهر طويلة خلف قضبان الأسر الكثيفة وأسواره السميكة.. فقد حضرت مريم بعد أن تحرّرت من أسرها.. حضرت مهنئة مباركة، حضرت تقبّل وجنتي وتشكر لي صنيعي مع أم عبد القدوس، ومع عبد القدوس الذي لم يكن بالنسبة لها سوى أخ أكبر، وقد أدركت ذلك مزيلةً الشك الذي كان بداخلي بعد أن علمت أنه قد تمت خطبتها قبل أكثر من عام، وهي ما تزال خلف أسوار الأسر.

طلبوا يدي.. فوافق أخي، وشربوا القهوة وشربنا معهم إعلاناً على موافقتنا على الخطبة والارتباط، كانت صحة أم عبد القدوس قد تحسّنت وبشكلٍ ملحوظ... أما صحة عبد القدوس فقد كانت في أسوأ أحوالها، فقد أبلغنا مندوب الصليب الأحمر أنه بات متأكداً أن عبد القدوس أصبح في لحظاته الأخيرة، فقد فهمنا مما قاله أنه لم يعد هناك أمل بأن تسمح سلطات الاحتلال الصهيوني متمثلة في إدارة مستشفى سجن الرملة لعبد القدوس بأن يخضع لزراعة قلب جديد..قلب استطعنا أن نؤمنه له عن طريق تكاتف نقابات الأطباء في العالم الإسلامي التي أخبرتنا عن قدرتها على توفير قلب يطابق مواصفات قلب عبد القدوس... إلا أن جبروت المحتل الظالم أبى أن يسمح للقلب بالوصول متجاهلاً كل النداءات الدولية والإنسانية، فهو عدو فاقد للإنسانية، فكيف لمن فقد إنسانيته أن يتجاوب مع مساعٍ إنسانية!.

ذلك ما كنا نعلمه جميعاً، حتى والد الغضنفر أبو عبد القدوس، أما والدته فلم تكن تعلم سوى أمر واحد لا غير، وهو أن صحة عبد القدوس في تحسّن وأنه خرج من المستشفى وعاد إلى غرفته في المعتقل ليحيا بين الأسرى حياةً عاديةً بعيدةً عن المستشفى وعن قيود السلاسل هناك.

بعد الخطبة بعدة أيام، كنت في زيارتها لكي أنقل لها رسالةً وهمية ادعيت أنها من الغضنفر، كان الأستاذ عابدين قد أعدّها بعناية فائقة، حتى لا تكتشف الأم الكذبة.. فقلب الأم يرى ما لا تراه عيناها الضريرتان، فقرأت الرسالة وما إن أتممتها حتى قالت لي أعطني يدك، فأعطيتها يدي اليمنى، فبدأت تعد أصابعي قائلةً: واحد يوم واحد، اثنان يومان اثنان، ثلاثة أيام ثلاثة، أربعة أيام أربعة، خمسة أيام خمسة من اليوم..عدي أياماً خمسة فماذا يكون تاريخ ذلك اليوم؟.. حسبت الحسبة فوجدته يصادف يوم الأربعاء الموافق الثاني عشر من شهر أكتوبر لعام ألفين وأحد عشر.. فقلت لها ما توصلت إليه من حساب للأرقام.. فقالت أم الغضنفر:

لا بل يصادف يوم وصول خبر عظيم كنت أنتظره منذ أعوام طوال، وسوف يتبع الخبر أخبار، وسوف يدخل الفرح إلى الدار...

فقلت لها: إن شاء الله يا عمتي، ويا والدة خطيبي الغضنفر... فقالت:

- نعم، كل شيء بأمر الله، فلا أمر لأحد سواه، هم أمروا وحكموا على ولدي بعدة عشرات من المؤبدات، والله عز وجل حكم حكماً لا حكم بعده..حكم بالإفراج والحرية.. عدي أيامك يا ابنتي واستعدي لموعد الفرح والفرج.

كنت أظن أم عبد القدوس تهذي أو تهلوس.. فقد حددت يوماً بعينه مؤكدة المرة تلو المرة على أن ذلك اليوم هو يوم الفرحة والنصر... أمضيت في صحبة الأم الضريرة عدة ساعات، عدت بعدها إلى منزلي متسائلة عن أي فرح تتحدث تلك الأم، أيكون استشهاد ابنها على سرير المرض فرحاً، وموتها حزناً عليه، أيكون الله قد كتب لنا أن نفرح بعد ما حلّ بنا من أحزانٍ لا تقوى الجبال على حملها.

مضى اليوم الأول، فانتظرت الثاني، فتلاه الثالث والرابع... وها نحن في اليوم الخامس، وها أنا أعود إلى حيث كنت.. إلى منزل أم الغضنفر عبد القدوس لأجدها جالسةً على سجادة الصلاة تصلي ولا تكفّ عن الصلاة، وعلى الرغم من أنني أصدرت عدة أصوات تدل على وصولي إلاّ أنها واصلت صلاتها بلا انقطاع، فجلست للتحدّث مع عمي والد الغضنفر.

وما هي إلا دقائق معدودة حتى طُرق الباب، فقمت لكي أفتحه فإذا بالطارق هو الأستاذ عابدين، جاءنا مبشراً مباركاً بأن الفرج عن عبد القدوس قد اقترب، وما هي إلا بضعة أيام حتى يُطلق سراحه، فقد كان الخبر الذي حمله الأستاذ عابدين يفيد أن المقاومة الإسلامية في فلسطين المحتلة قد تمكّنت من إبرام اتفاق مع الصهاينة بوساطةٍ مصرية تنص على أن تطلق قوات الاحتلال الصهيوني بموجبها سراح أكثر من ألف أسير وأسيرة فلسطيني وفلسطينية،

وأن يكون هؤلاء الأسرى من كل بقعة من بقاع فلسطين على عكس ما كان يحدث سابقاً في صفقات التبادل، فقد كانت تلك الصفقات يستثنى منها أبناء مدينة القدس المحتلة وأبناء الأراضي الفلسطينية التي احتلت عام ثمانية وأربعين، أما اليوم فقد فرضت المقاومة شروطها على ذلك الكيان المحتل الغاصب، لأنها تملك ما يريده ذلك العدو وهو الجندي الصهيوني الذي انتزعته المقاومة من داخل دبابته التي كان يتحصّن بها هناك على تخوم قطاع غزة المقاوم، ذلك القطاع الذي استطاع تركيع الاحتلال متجاوزاً كل الضغوط التي مورست عليه، وكل الصعاب والمآسي من خلال عزم أهله وقوة إيمانهم وتمسّكهم بما عاهدوا الله عليه، وهو إطلاق سراح ألف من الأسرى مقابل ذلك الجندي.

وهذا ما بدأت بوادر بشائره تتحقق، فقد تم الإعلان وبشكل رسمي على التوصل للاتفاق، بل وتم تحديد موعد لتنفيذ ذلك الاتفاق، هذا ما قاله الأستاذ عابدين، وهذا ما بدأت وسائل الإعلام كافة تتناقله وبشكلٍ موسّعٍ ومفصل... وها هو اسم الغضنفر يظهر بين أسماء الأسرى المنوي الإفراج عنهم.

أما أنا، فقد لازمت أم عبد القدوس طوال تلك الأيام..أيام الانتظار، حتى موعد الإفراج وإطلاق السراح... كم كنت خائفة وقلقة من أن يحدث أمر يعرقل إطلاق سراح الأسرى، ويوقف تنفيذ الصفقة، وكم كانت أم الغضنفر هادئة وواثقة بالله تعالى أن الأمور سوف تتم كما قالت ووعدت المقاومة. فقد تبيّن أن عبد القدوس سوف يتم إبعاده إلى خارج الأراضي الفلسطينية، وسوف يتم نقله من مستشفى سجن الرملة إلى أحد المشافي في دولة إسلامية وافقت على استضافته، بل وصّت بأن تستقبله هو وعدد آخر من الأسرى المنوي إبعادهم خارج فلسطين.

الليلة هي الليلة الأخيرة التي سيمضيها الغضنفر مقيداً في سرير مشفى المعتقل، وغداً.. غداً صباحاً ستكون القيود قد كسرت، والأسوار قد هدمت.. والغضنفر قد تحرر بإذن ربه وبتيسير منه.

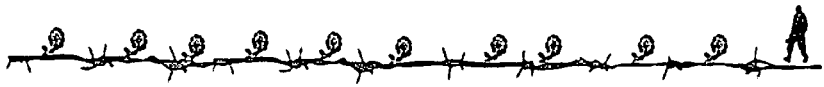

الفصل الثامن

ليس بعد الليل إلاّ فجر مجدٍ يتسامى...

ليس بعد الليل إلاّ فجر مجدٍ يتسامى...

هلّ الفجر..وهلّت معه تباشير الصبح الجديد، هلّ معلناً بدء عملية إطلاق الأسرى الفلسطينيين إلى مدنهم وقراهم، وإلى عدد من البلاد التي استعدت لاستقبال المبعدين منهم... بين المبعدين كان خطيبي عبد القدوس، وكان خطيب المحامية ساجدة فهو مقدسي تقرر إبعاده أيضاً.

بدأت الصور الأولية تظهر للأسرى المحررين وهم يصعدون في باصات الصليب الأحمر الدولي، منطلقين من داخل معتقلاتهم التي مكثوا بها عشرات الأعوام تحت الذل والتعذيب والإهانة الصهيونية التي ما بعدها إهانة.. ومع ذلك خرجوا بهامات عالية شامخة..خرجوا عندما أذن الله تعالى لهم بذلك.. خرجوا أحراراً رغم الجبروت الصهيوني.

تمكّنت ساجدة من مشاهدة خطيبها أحمد بين المحررين، أما أنا فلا... ويعود ذلك لأن زوجي أو خطيبي الحالي عبد القدوس تم نقله بشكلٍ منفردٍ وبسيارة إسعاف تابعة للصليب الأحمر على أن تقوم سيارة الإسعاف هذه بنقله إلى مصر، ومن هناك ينقل مجدداً وبنفس اليوم إلى تلك الدولة الإسلامية التي استعدت لاستقباله بعد ما عرفت ما تمثله حالته الصحية من خطر على حياته.

كل ذلك تمّ ولم أتمكن من رؤيته، فقد تعمد الصهاينة ألاّ يتم نقل عبد القدوس في بداية عملية التبادل، بل أخّروه إلى المرحلة الأخيرة... كنت أشاهد ما يحدث من خلال شاشة التلفاز، وكانت أم الغضنفر تسألني قائلةً:

- هل ترينه، وهل ترين كم هو قوي وجميل؟

كنت أرد عليها قائلةً:

- نعم، إني أراه و لا يحتاج سوى خرزة زرقاء حتى تبعد عنه عين الحسّاد.. ما شاء الله غضنفر قولاً وكلمةً..فكانت تجيبني قائلة:
- سوف نعجّل بمراسِم الزفاف، فأنا أريد أن أرى أحفادي قبل أن يتوفاني الله. وكنت أرد قائلةً:
- بإذن الله سوف تفرحين بأولاد أولادك، وبأولادهم أيضاً...أطال الله لنا في عمرك.

كان ذلك هو الحوار الذي يدور بينيَ وبين أم عبد القدوس، أما الحقيقة والواقع فكانا يختلفان اختلافاً كلياً.. لم أكن قادرة على رؤية عبد القدوس بين الأسرى، ولم يكن عبد القدوس قادراً على الوقوف على قدميه حتى يزأر وتقدح عيناه شرراً..هذه المرة هو نائم على سرير تحوّل إلى عربة تنقل من سيارة إلى سيارة، ومن سيارة إلى طائرة.

هناك.. وصلت الطائرة بعد منتصف الليل، وكنتُ قد تركت أم الغضنفر لتستريح وتنام، وعدت إلى منزلي وشاهدت الطائرة تهبط في المطار، وبعدها شاهدت عبد القدوس وهو على سرير المرض ينقل إلى إحدى سيارات الإسعاف، سأله الصحفيون السؤال تلو السؤال...لكنه كان منهكاً تعباً من شدة المرض، كان عاجزاً عن النطق والكلام... ومع ذلك فقد كانت شارة النصر التي رفعها من خلال إشارة أطلقها بين أصابعه التي شكلت الرقم سبعة معلنةً الانتصار.

تمكّنت في تلك الليلة وبعد أن وصل عبد القدوس إلى المستشفى في دولة الإبعاد من إسماعه صوتي دون أن أتمكّن من سماع الكثير منه، فقد كان صوته خافتاً يكاد لا يسمع، بل لم يكن يُسمع مما جعل الطاقم الطبي المعالج يطلبون مني توديعه وإنهاء المكالمة، حتى يرتاح ويباشروا عملهم من خلال الفحوصات التي يجرونها له استعداداً للعملية الجراحية تلك التي سوف يقومون خلالها باستبدال قلبه المريض بقلب آخر.. قلب ينبض صحةً وعافية.

وكما هي عادتي في مثل تلك الأمور، فإن غبائي وتلك الأعشاب اليابسة التي تملأ رأسي بدأت أفكرّ... سألت نفسي: هل سيكون لي مكانٌ في هذا القلب الجديد؟ هل فعلاً أن عبود يحبني؟ اهتزت الأعشاب اليابسة داخل رأسي قائلةً لا وألف لا، فإن القلب الجديد يحضر ويحضر معه حباً جديداً، ولا مكان به للحب القديم... غبية تلك الأفكار، وسيئة تلك الأعشاب اليابسة.. ولذلك قررت أن أضع رأسي تحت صنبور الماء حتى أخلّصه مما به من أفكار وأعشاب ضارة، وأظنني نجحت في ذلك، ونجحت أيضاً بأن أروي إحدى الأفكار القديمة التي كان بها بعض الاحتضار والروح، فأنا ودون أن أدري رويت فكرة الثأر والانتقام من ذلك العدو الذي أفقدني والدي، وأفقد أبناء شعبي الحرية والحياة الكريمة... فقد عاودت أفكر بتلك السكين التي أغرسها بصدر أحد أولئك الصهاينة المجرمين.

تركت هذه الفكرة الوحيدة تعبث بعقلي، وألقيت رأسي على الوسادة لكي أغط بنومٍ عميق، فأنا ومن عدة أيام لم أكن قادرة على النوم ترقباً وانتظاراً بأن أرى صفقة تبادل الأسرى تخرج إلى النور، وها هي تخرج إلى نور الحرية مع خروج أكثر من ألفٍ من الأسرى والأسيرات، وها هو نور فجر الصبح أوشك على إعلان صبح يوم جديد، فقمت لأصلي صلاة الفجر التي ما زلت محافظة عليها منذ استشهاد والدي، وبعد ذلك نمت نوماً عميقاً لم أستيقظ منه إلاّ بعد إعلان المؤذن أذان عصر ذلك اليوم الجديد...ركبت سيارتي بعد أن صليت العصر وقضيت صلاة الظهر وتناولت طعام الغداء والإفطار معاً، فقد كنت جائعة لدرجة أذهلت أمي، وجعلها تقول:

- حماك الله يا ابنتي، وأدخل السرور والطمأنينة إلى قلبك... فلسطين ألا تأخذتنني معك إلى منزل أم عبد القدوس حتى أبارك لها بخروج ولدها سالماً معافى من داخل المعتقل.

فأجبتها قائلةً:

- سالماً نعم، أما معافى فهذه علمها عند الله تعالى، ولذلك أريد منك إذا ما سألتك أم عبد القدوس عن ولدها ألا تقولي لها شيئاً عنه، وبالذات عن صحته، فقد تقرر يا أمي أن يتم عمل عملية جراحية له بعد عدة أيام لاستبدال القلب الجديد بالقديم، لعل الجديد يحمل معه الصحة والعافية، كما قلت يا أماه.
- ما إن وصلنا إلى منزل أم عبد القدوس حتى كان المنزل يغص بالمهنئين الفرحين بخروج الغضنفر حراً طليقاً...
- ما إن جلست بجوار أم الغضنفر حتى سلّمت عليها، فسلّمت هي أيضاً، ولكنها لم تكتفِ بالسلام بل رفعت يدها وصولاً إلى وجهي وإلى أذني اليمنى تحديداً لكي تقوم بقرصها قرصةً مؤلمة. قالت بعدها أم الغضنفر:
- أعلم يا فلسطين أن نيّتك كانت نيةً حسنة عندما لم تخبريني بحالة عبود الصحية، وقد أصبحت أعلم أيضاً أنك لم تخبريني أن الغضنفر كان مريضاً لدرجة منعته من الوقوف وأنه كان مستلقيا على سريره الطبي. فعلت ذلك خوفاً على صحتي وحياتي، وأنا أقدّر لك ذلك كله، كما أقدر ما فعلته عندما قرأت تلك الرسالة بالمستشفى التي ادعيت أنها من ولدي، وأنه يطلب يدك.. قد يكون الشك راودني بما قلت، إلا أنني أشكرك على كلّ ما فعلته لي ولولدي، ولكن يا ابنتي فلسطين اعلمي أن حبل الكذب قصير، بل أقصر مما تتوقعين، فإياك ثم إياك أن تكذبي علي ثانيةً، فالحقيقة رغم مرارتها تكون دائماً أفضل من المراوغة كما فعلت.

قالت أم الغضنفر ما قالته همساً بأذني التي كانت قد قرصتها، فأجبتها قائلةً: اعلمي يا أم خطيبي الغضنفر أنني محامية فلسطينية، وهذا يعني أنني أجد نفسي في مواجهة القانون، لأنه غير عادل رغم كونه قانوناً، وخاصةً إذا ما كان الصهاينة هناك في المحاكم الصهيونية، أما ما تعلمته هنا معك ومع عبد القدوس فهو أن قلب الأم المليء بالإيمان والعينين الضريرتين تريان ما عجز المبصرون عن رؤيته،

فأنت كنت أول من بشّر بأن الفرحة قادمة، والحرية في الطريق... وأن طريق الفرح قد أعدّ للأفراح المتلاحقة والمتتالية، ولذلك لم أشأ أن أعكّر صفو ما جاد به قلبك المبصر.

تعالت الزغاريد.. ورفعت رايات المقاومة الإسلامية خفاقةً عالية في أرجاء منازل القدس المحتلة، متحديةً جبروت الاحتلال، وارتفعت مع الأعلام الأناشيد الإسلامية الداعمة للمقاومة، ولما قامت به من عملٍ مشرّف، عمل أعاد الفرحة إلى أكثر من ألف أسرةٍ فلسطينية في مختلف أنحاء فلسطين المحتلة، تواصلت الأفراح لأيامٍ عديدة، متحديةً كل ما قام به المحتل الغاصب كي ينغّص هذه الفرحة... وتواصل مع الاحتفالات إعلان الانتصار.

أما هناك في المستشفى، فقد تمكّن الفريق الطبي المعالج الذي أعدته الدولة الإسلامية المضيفة من القيام بالعملية الجراحية لعبد القدوس، ولقد أجمع ذلك الطاقم الطبي على أن العملية قد نجحت نجاحاً مبهراً، رغم أنهم كانوا قد وضعوا نسبةً مئوية تجاوزت الثمانين بالمئة تفيد أن جسد عبد القدوس لن يتحمل القيام بتلك العملية، وأنه ميت لا محالة، وقد اعتمدوا بذلك على أمرين أولهما الإهمال الطبي الذي يصل لدرجة الجريمة التي مارسها الأطباء الصهاينة في مستشفى سجن الرملة الصهيوني، وثانيهما أن الطب يقرأ الأرقام والتحاليل الطبية، ولم يكونوا يعلمون أن هناك ما هو أكبر من ذلك بكثير وهو دعاء أمٍ فلسطينية دعت ونظرت إلى ربها وهي راكعة هنا... هنا في المسجد الأقصى في أرض معراج محمد عليه السلام، لم يأخذ الأطباء ذلك بالحسبان لكن الله أعلى وأقدر على أن يلبي دعاء الأم المظلومة، فلبّى الله الدعاء ونجحت العملية نجاحاً مبهراً كما قال الأطباء.

ما إن أعلن الأطباء خبرهم المفرح، حتى نقلته على الفور إلى أم الغضنفر فعاودت إمساك أذني كما فعلت في المرة السابقة، وقالت:

- أهذا كلام مراوغ ككلام المحامين، أم أنه حقيقة يا فلسطين يا خطيبة ابني.. بل يا ابنتي؟.
- فقلت لها:
- هذا الكلام هو الحقيقة التي قالها الأطباء وبشّرني بها عابدين من هناك، حيث يمكث بجوار ابن خالته عبد القدوس، فقد تمكن الأستاذ عابدين من السفر لذلك البلد المضيف، لأنه يملك جوازاً للسفر يمكّنه من التنقل بحرية من داخل فلسطين المحتلة إلى خارجها.
- وعندها قالت أم الغضنفر:
- وماذا حلّ بأوراقنا التي قدمناها للسلطات لكي نحصل على جوازات سفر تمكننا من الذهاب لعبد القدوس؟.
- فأجبتها قائلةً:
- أسبوعان..أسبوعان لا أكثر ولا أقل بإذن الله كما وعدونا هناك في سلطة الجوازات، وبعدها نحصل على جوازات سفر لكي نسافر جميعاً إلى عبد القدوس.

خلال هذين الأسبوعين حصلت ثلاثة أمور مهمة:

أولها أن أم الغضنفر قصت عليّ كل ما كانت تعرفه عن ابنها منذ يوم ولادته حتى يومنا هذا..ومن خلال ما قصته استطعت أن أتعرّف أكثر وأكثر على شخصية عبد القدوس، فأدركت أن اختياري له حبيباً وزوجاً كان اختياراً صحيحاً.

أما الأمر الثاني فقد كان يدور حول صحة عبد القدوس التي بدأت تتحسن، وأصبح قادراً على التحدث عبر الهاتف، فتحدث مع أمه وأبيه ومعي أنا خطيبته وحبيبته، إلاّ أن ذلك الغضنفر بقي يناديني إما باسمي فلسطين أو بكلمة الزعترة البرية.. أو كان يقول لي كلمة عزيزتي.. مما كان يجعلني أغلي غضباً، فهو لم ينطق بكلمة أحبك..أعشقك أبداً، ولم أكن أدري لماذا... إلا أنني لم أسمح لنفسي بالبدء بالتحليل والتخمين، فقد اكتفيت بأن قلت لنفسي اصمتي ولا تحدثيني،

فأنت لم تحبي حباً مثل حب الأسود... فكانت تجيبني إن كان حبّ الأسود هكذا، بلا كلام حبّ وغزل، فأنا أفضّل حبّ الطيور المغردة... لا حب أسدك الغضنفر.

أمارة بالسوء تلك النفس، لو أستطيع إخراجها من داخلي لكي أصفعها لعلها تستفيق وتتوقف عن قول التفاهات، ثم أعيدها بعد الصفع لداخلي لتجلس ساكتة.. فأنا ما عدت بحاجةٍ للتحدّث معها، فهاتفي عندي وسوف أتحدّث إلى غضنفري، لعل حديثي إليه يليّن قلبه الجديد، آملةً أن يكون القلب الجديد ألين من القلب الذي سبقه.

حاولت وحاولت.. إلا أن تلك المحاولات كانت كلها على حياء واستحياء.. لم تلين قلب ذلك الأسد العنيد.. أما ما كان وراء تليين قلب الغضنفر فقد كان الأمر الثالث الذي حدث خلال الأسبوعين اللذين انتظرنا خلالهما صدور جوازات السفر، فقد عاد الأستاذ عابدين من عند عبد القدوس حاملاً منه وكالة تخوّله أن يكون وكيلاً عن عبد القدوس في عقد قرانه علي، وهذا ما وافق عليه إخوتي وأمي ورحّبت به أم الغضنفر، فتمّ عقد القران وكتابة أوراق الزواج في حفل صغير جداً أعددناه في منزلنا، وعندها أصبحت وبشكلٍ رسمي ومن الناحية القانونية والدينية زوجةً لعبد القدوس، وما إن تم عقد القران وعاد المحتفلون إلى بيوتهم حتى صعدت إلى غرفتي مستقبلةً أول مكالمة من عبود.. نعم من عبود، فقد كان من يتحدث معي هو عبود وليس عبد القدوس أو الغضنفر، ولقد كان حديثه حديثاً آخراً، حديثاً لم ألفه من قبل، فقد بدأ حديثه بعد أن قال السلام عليكم، وأجبته وعليكم السلام.. قال عبود:

- كيف حالك يا حبيبة القلب، وكيف أنت يا مهجة الفؤاد، يا نبع الحب والجمال، يا زعترتي البرية، يا نرجستي الفلسطينية الجميلة.

أجبته:

- مشغولة أنا وتعبة، فقد كان يومي طويلاً ومرهقاً فكما تعلم انتهينا اليوم من عقد القران، ولذلك أشعر بالنعاس، وأرغب بأن أذهب للنوم، فأنا كما قلت متعبة ومرهقة..

فأجابني قائلاً:

- بل أنت ماكرة مراوغة، أو خجلة اجتاحها الحياء...

فقلت:

- هذه وتلك، فأنا خجلة لأنني لم أعتد سماع هذا الكلام الجميل منك في السابق، وأنا ماكرة فقد أردت أن أغيظك وأعاقبك لأنك لم تسمعني مثل هذا الكلام قبل اليوم.

فأجابني قائلاً:

- وماذا حدث اليوم.. نعم، نعم.. اليوم أصبحت زوجتي وبشكل رسمي وشرعي أمام الله عز وجل، وأمام الناس الذين شهدوا على زواجنا، ولذلك فاليوم ليس مثل الأمس، فأنت اليوم حلالي وأنا حلالك على سنة الله ورسوله.. أليس كذلك يا عزيزتي فلسطين..هل تريدين مني أن أعاود مناداتك بكلمة عزيزتي.. أم أنك تفضلين كلمةً أخرى.. يا زعترتي البرية.

فقلت له:

- قل ما تشاء.. فأنا أظن أن القلب الذي زرع بداخلك يعود لأحد أمراء الحب إبان العصر الجاهلي، فصاحب قلبك الجديد هو من ذلك النوع الذي يحمل سيفه بيمينه خاطاً به الطعنات على أجساد أعدائه، وكاتباً به أيضاً أعذب أبيات الشعر والغزل. وكما تعلم أن أعذب الشعر هو...

قاطعني قائلاً:

- شكراً أنا لم أقل، وكل ما قلته غزل صادق صدر من داخل عقلي قبل قلبي، فأنا أحببتك بعقلي أولاً، لأنك كنت فتاةً تستحق الحب والاحترام على ما فعلته لي ولوالدتي طوال الفترة الماضية، أما قلبي فقد انتزعت ما كان به من حب لك ولفلسطين ولأمي ووضعته داخل القلب الجديد الذي كان خالياً مستعداً لاستقبال كل مشاعري...

فأنا وعلى الرغم من كوني مقاتلاً جلفاً كما يقولون عني... إلاّ أنهم لم يكونوا يعلمون أو يدرون أنه حتى الوحوش والأسود تحب وتهوى... لكنني أسد مسلم مؤمن بالله تعالى، ملتزم بتعاليمه، ولذلك أجّلت قول ما كنت أحمله لك من مشاعر حب حتى أصبح زواجنا أمراً واقعاً ملموساً..متى سوف تحضرين إلي حتى أراك أنت وأمي وأبي.. وأرى وجهك الجميل الذي ما كنت أجرؤ على النظر إليه، وإلى عينيك اللتين تمكنت من رؤيتهما مرتين، بل تمكنت من لمحهما مرتين، أثناء زيارتك لي، ولم أتمكن من معرفة ما كانت تخبئه تلك العينان أيتها الحبيبة الجميلة.. أيتها الزعترة البرية.

ودّعته بعد أن أدركت أنه إنسان يعرف كيف يحب بكرامة دون ابتذال وبلا غباء... غباء المحبين الساذجين الذين يحبون ويتبادلون كلام الحب قاصدين من خلاله مضيعة الوقت والعبث، مبتعدين من بحبهم الذي لم يتوّج بزواج يرضي الله تعالى ورسوله محمد ﷺ عن أصول تعاليم دينهم الحنيف.

وكم كبر أكثر وأكثر في عيني وقلبي وعقلي أيضاً، ذلك الإنسان الذي أصبح اليوم زوجي، فقد حفظ حبه داخل قلبه ولم يبح به إلا بعد أن أذن الله له بذلك من خلال عقدنا للقران.

أيام سوف أنتظرها على أمل السفر هناك خارج فلسطين، حتى أتمكن من الوصول إلى أحد رموز فلسطين... إلى المقاوم الذي صدق الله عهده، فقاوم وقاوم وأسر فتحرر بأمرٍ من الله وتيسير منه، وبفعل عمل رجال صدقوا العهد وبدّدوا الوهم. وأخرجوا الأسرى ليزيحوا الليل مطلقين العنان للفجر المتسامي في سماء فلسطين.

الفصل التاسع

هل يغادر الجسد القدس وتبقى الروح؟.

.. أم تغادر الروح ويبقى الجسد !

هل يغادر الجسد القدس وتبقى الروح؟.
.. أم تغادر الروح ويبقى الجسد!

حانت ساعة الوداع، واقترب موعد مغادرتي لمدينة القدس، زهرة مدائن المدن، لكي أنضم إلى زوجي هناك في الشتات والغربة، بعيداً عن الأسواق العتيقة والأزقة المرصوفة والمليئة بجنود الاحتلال الذي أحكم طوقه على المدينة من الداخل والخارج، بل فأصبحوا جزءاً من سكانها.

اليوم انتهينا من إعداد أوراق سفرنا، وحصلنا على جوازات السفر، ولن يبقى على موعد سفرنا سوى هذه الليلة الأخيرة لنا في زهرة المدائن، فقد قرّر والد وأم عبد القدوس حزم أمتعتهم من أجل السفر لولدهم، وللبقاء هناك في الشتات معه، حتى يقضوا آخر أيام عمرهم بصحبته، وكم كان قاسياً عليهما أن يقدما على مثل تلك الخطوة، فهما كشجرتين من الزيتون غرستا في القدس وترابها منذ آلاف السنين... صعبٌ هو الاقتلاع وأصعب منه هو الوداع، فقد كانت أم عبد القدوس تلك الأم الضريرة تتمسّك بكل ما يحتويه منزلها من أدوات وحاجيات، كانت تمرر يديها على الجدار وعلى الأبواب، تمررها ملامسة حتى الهواء الذي احتضنته تلك الدار، أم عبد القدوس كانت تستقبل المهنئين بخروج ولدها، وتودّع المودعين لسفرها وهي باكية العينين، باكية على وداع يليه غربة وتشرّد وألم. تبكي على فرحة لقائها بولدها، لقاءٍ طال انتظاره، وحان موعده بعد أن تحرر الولد، وها هي الأم تحرر نفسها ونفس زوجها من خلال اقتلاع جذورها الضاربة في أرض القدس حتى تلاقي ولدها، كنت أشعر بحزنها وأشعر أن فراقها للمدينة ليس أمراً سهلاً بل هو أصعب ما يمكن تخيله.

على هذه الحال تركت أم زوجي، بل أمي أم عبد القدوس، بعد أن أتممت مساعدتها بحزم أمتعتها استعداداً للسفر في صباح يوم غد... وعدت إلى منزلي لأجد هناك إخوتي وأمي وعددا كبيرا جداً من الأقارب والأصدقاء الذين قاموا بتوديعي وتوديع أمي التي كانت تستعد هي الأخرى لمرافقتي مع أخي الأكبير، حتى أزفّ إلى زوجي هناك في أرض الشتات، حيث أُبعد عن مسقط رأسه فلسطين وعن قدسها عاصمة الجهاد والمجاهدين.

كنت أستقبل المودّعين سعيدةً حزينة، بل كنت أستقبلهم وأنا مشتتة بين أمرين اثنين، أولهما أمر التقائي بعبد القدوس كي أحيا معه مكملةً حلماً حملته معي منذ سنوات طفولتي، حلم الزواج بفارسٍ أفنى عمره فوق ظهر جواده دفاعاً عن أرضه ودينه وعرضه، دفاعاً عن عقيدة مزروعة داخله تقوم على أن الجهاد في سبيل الله هو الوسيلة الوحيدة لتحرير فلسطين بمسجدها الأقصى وتحرير سائر أرض فلسطين.

وها أنا سوف أستيقظ غداً صباحاً لأرى الحلم واقعاً حقيقياً ملموساً، فغداً سوف أبتعد عن مدينتي لألتقي بمن أحببت وعشقت...كان ذلك الأمر يجعلني سعيدة متفائلة بأن الغد يحمل معه بشرى لحياة جديدة بعيداً عن الاحتلال والهموم التي تحيط بعذاباتنا من جرّائه... سعيدة لأني سوف أغادر المدينة المحتلة بجحافل جنود الظلم والظلام.. جنود الصهيونية اللعينة.

لكنّني حزينة لأنني لم أنتقم ثأراً لوالدي الشهيد، وهذا هو الأمر الثاني الذي كان يجول بخاطري، فهذا الأمر جعلني أعتبر تركي لمدينة القدس خيانةً لدم والدي الذي احتضنه ترابها.

كان هذا هو حالي طوال ليلة وداعي من قبل الأهل والأقارب والأصدقاء.. وكم كنت أتمنى لو أتمكّن من الانفراد بنفسي قليلاً لعلي أستطيع اتخاذ قرار أسير عليه بدلاً من وقوفي على مفترق الطريق هذا الذي يعصف بتفكيري.

فما كنت أملك القدرة على اجتياز ذلك المفترق قبل أن أتمكن من الإجابة على السؤال الذي بات مصدر تشتت وضياع...

كررت السؤال وكررت، وقلت هل أسمح لجسدي أن يغادر مدينة القدس زهرة المدائن، وأترك روحي معلقةً بجوار قبر والدي الشهيد، أم أدع روحي تغادر جسدي تاركةً إياه في المدينة المقدسة ليدفن بجوار أبي.. فقد كنت أفكّر بتلك السكين وما كنت قد نويت فعله سابقاً بها، ومع اقتراب موعد السفر الذي لم يبقَ عليه سوى عدة ساعات ازداد تفكيري أكثر وأكثر بسكين الثأر والانتقام.

سكيناً وضعتها إلى جوار جواز سفري بداخل حقيبة يدي التي لم أكن أسمح لها بأن تبتعد عني، بل كنت أضع يدي بداخلها بين الحين والآخر لأدع أصابعي تلامس جواز السفر ملامسة الحب والشوق والحنان، وما ألبث حتى أترك جواز السفر منتقلةً بأصابعي ممسكة بمقبض السكين..سكين الثأر والانتقام ذي النصل الحاد القاتل.

كل ما كنت بحاجة إليه هو قرار واضح قاطع.. قرار يصدر من داخلي بلا تردد حتى أتقدم نحو هدفي بلا خوف، وكي لا أتراجع...كنت بحاجة لذلك القرار حتى أجتاز مفترق الطرق الذي بات قيداً يقيد حركتي على التقدم نحو أحد الخيارين... السفر أم الثأر.. الحب أم الموت.. آه لو أن تلك الفكرة التي تسيطر على عقلي تخرج لتصارع ما أصبح يسري داخل قلبي من حب، لعل حبي لعبد القدوس يتغلب على حقدي وكرهي للاحتلال القاتل المجرم.

لقد تحوّل الصراع بين الفكرتين اللتين تدوران بداخل رأسي من مجرد صراع أفكار إلى اقتتال تفكير، مما قادني إلى التركيز أكثر وأكثر لعلي أصل إلى حلّ يضع حداً لما أنا به من حال... فها أنا ما زلت أضع أصابعي داخل الحقيبة متنقلة بين جواز السفر والسكين، متنقلة بينهما بحسب ما كانت تأخذني نحوه أفكاري وهواجسي.

أمسك بقوة مقبض السكين تارةً، والامس جواز السفر بلطف وحنان تارةً أخرى... ليتني لم أضع السكين في حقيبتي، قلت ذلك.. وقلت أيضاً ليتي لم أستخرج جواز سفر يخرجني خارج المدينة.

ما أن بدأ المودعون بالانصراف حتى طلب مني أخي أمجد الذي يكبرني بنحو عامين أن ألحق به إلى مكتب والدي، فتبعته إلى هناك ظناً من أنه يريد توديعي بعيداً عن ضجة من بقي من المودعين، فجلست أمامه وجلس هو على مقعد والدي ناظراً نحوي لثوانٍ معدودة انصرف بعدها للنظر نحو صورة والدي.. وقال:

- أختي الصغيرة، غداً صباحاً سوف تتركين المدينة مع والدتنا وأخينا الأكبر لتزفي إلى زوجك عبد القدوس، لذلك لم أشأ أن أودعك وداعاً عادياً، بل أردت أن يكون وداعاً استثنائياً، فهذا الوداع سأودع معه سراً كبيراً أمانةً عندك.. سر بدأ قبل نحو الشهر عندما قمت مع عدد من المقاومين من أبناء حركة المقاومة الإسلامية بتنفيذ إحدى العمليات ضد قوات الاحتلال المجرم، ولقد مكّنني الله تعالى في تلك العملية من قتل أربعة من أولئك الجنود الأوغاد... عندما انضممت لتلك المجموعة المقاومة ظننت أنني سوف أقوم بالثأر والانتقام لاستشهاد والدنا، ولكني أدركت أن الثأر يعني طلب أمر دنيوي، أمر شخصي، بعيداً عما يطلبه أولئك المقاومون الإسلاميون، إن النية في أي عمل إن لم تكن خالصة لوجه الله تعالى، فإن العمل يصبح بلا روحٍ وإيمان، وإن الجهاد وإخلاص النية لله وحده في أداء العمل، هو الأصل الذي يجب أن يحكم تصرفاتي وأعمالي ضد الاحتلال.

هنا أدركت أن ثأري لوالدي يجب أن يمرّ من خلال إيماني بأن الجهاد في سبيل الله هو سبيلي لعمل ذلك، وأن المقاومة هي أداتي لإتمام ذلك...أختاه إنني عاهدت الله عزوجل على مواصلة درب المقاومة والجهاد لعلي أتمكن من أن أكون سيفاً من سيوف الحق ضد هذا المحتل الظالم.

هذا سري فاحفظيه يا أختي الصغيرة... فأنت غداً سوف تزفين إلى زوجك الغضنفر، ولذلك فما عدت بعد اليوم صغيرة، بل فلسطينية قادرة على أن تجعل من صدرها قبواً لحفظ الأسرار... أودعك يا أختاه على أمل اللقاء في جنّة الخلد عند الواحد الأحد... فأنا لا أعلم إلى أيّ الحسنيين سوف يودي بي دربي الذي سرت عليه، فهذا درب لا ننال من خلاله إلا الشهادة في سبيل الله أو الانتصار لشرع الله ودينه.

قام عن كرسي والدي مودعاً إياي مقبلاً رأسي، واضعاً بيدي سلسلة علّق بها جسد رصاصة، وقال لي علقيها حول عنقك، فهي رصاصة أفرغت ما بداخلها من بارود بجسد من قتلت من جنودِ صهاينة.

حملت السلسلة واضعةً إياها طوقاً حول عنقي، طوقاً يزينه ما به من جسد رصاصة فارغة من البارود..مليئة بالمعاني التي كنت أحتاجها.

فقد أدركت من خلال حديثي مع أخي أمجد أن المقاومة من خلال الجهاد في سبيل الله ضد قوات الاحتلال هي الوسيلة للوصول إلى رضاء الله، وليس الثأر والانتقام الذي قد يرضي النفس ويغضب الرب، فنحن طلاب آخرة ولسنا طلاب دنيا.

ارتاحت نفسي عندما سمعت ما قاله أخي أمجد من سر اعتبرته أهم ما يمكن الاحتفاظ به بداخلي قبل أسراري.

ما إن ترك أمجد المكتب حتى كانت صديقتي ساجدة هي من تدخل علي لتخبرني أنها سوف تسافر بعدي بنحو أسبوع عند خطيبها المبعد أحمد، الذي أصبح ومنذ إبعاده صديقاً ملازماً لعبد القدوس، وأخبرتني أنها سوف تلحق بي لكي تتم مراسم زواجها هناك في المستشفى، فقلت لها إذاً سوف يكون زواجنا نحن الاثنين مع أحمد وعبد القدوس زواجاً جماعياً كي تعم الفرحة على الكل.

ودّعتها بعد أن أنهينا حديثنا، وودعت معها فكرة الثأر والانتقام، فقد أدركت أنني وعدتها بأن يكون زواجنا في نفس اليوم، مما جعلني أدرك أنني قد تمكّنت أخيراً من التخلّص من فكرة السكين القاتل.

غادر كل الضيوف والأهل والأصدقاء منزلنا، فلم يبق معي سوى أمي التي انتهت من إعداد حقائبها استعداداً للسفر بصحبتي لكي تكون سنداً لي في خطوتي نحو المنفى الاختياري، ونحو الزواج المنشود..ذهبت إلى غرفتها فوجدتها تكفكف بعضاً من دمعها حزناً على مستقبل حلو ومر يحمل معه زفاف الابنة لمن أحبت، ويحمل معه أيضاً بُعدها عن حضن الأم والبيت والمدينة. جلست إلى جوارها، فمسحت ما بقي من أثر دمع العيون، غير قادرة على مسح دمع القلب الذي يسكن صدرها. ودون مقدمات قالت أمي:

- كنت أود يا ابنتي أن أهديك ما كنت أملكه من قطعٍ ذهبية وحلي، فقد وعدت نفسي أن أفعل ذلك يوم زفافك، إلاّ أنني ما عدت قادرة على الوفاء بذلك الوعد، فما عاد عندي حلي أو ذهب لأقدمه لك.

أجبتها قائلةً:

- لست بحاجة إلى الذهب أو الحلي بعد اليوم يا أمي، فقد أصبحت أملك حول عنقي ما هو أغلى وأثمن، مشيرةً لها بالسلسلة التي أعطاني إياها أخي أمجد.. لم تفهم قصدي ولم أكن قادرة على أن أشرح لها وأوضح ما كنت أقصده وأعنيه

بكلامي، لذلك تهرّبت من الإجابة عن سؤالها عما أقصد من خلال سؤال أمي عما كانت هي تقصد عندما قالت إنها لم تعد تملك ذهباً وحلياً... فقد كنت أعلم أن والدي وإخوتي كانوا يهدونها الكثير من تلك القطع الذهبية في مختلف المناسبات المفرحة، حاولت أن تفرّ من الإجابة إلا أنها لم تستطع، فأنا فلسطين المحامية التي لا مفرّ من الإجابة عن أسئلتها، فأجابتني بعد إلحاحٍ قائلة:

- لقد تبرّعت بما كنت أملك من ذهب وحلي في سبيل الله، تبرعت به إلى رجال المقاومة حتى يعينهم على ما يقومون به من أعمالٍ جهادية في سبيل تحرير القدس، ومن أجل إعلاء كلمة الله تعالى... تبرعت بذهبي وحليي لعله يتحوّل إلى سيفٍ يطيح برؤوس قتلة الأطفال والشيوخ.. قتلة أبيك.. زوجي الشهيد.

ما عادت أمي تستطيع مواصلة الحديث، فقد بدأت دموعها بالخروج مودعةً عينيها اللتين أصبحتا حمراوين من شدة ما ذرفتا من دمع على مر الأشهر السابقة.. تلك الأشهر التي لم تتمكن من جعل أمي تنسى ولو للحظة واحدة أبي.. زوجها الشهيد... فما كان مني إلاّ أن بادلتها الدمع بالدمع، فبكيت بعد أن بكت ودمعت بعد أن دمعت، وإلى جوارها نمت ليلتي الأخيرة في مدينتي، زهرة المدائن، القدس الشريف، متمنيةً بزوغ الفجر الجديد.

طلع الفجر الجديد، وحضر أخي الأكبر كارم مصطحباً معه سائق حافلة صغيرة لكي تقلنا إلى المعبر الحدودي الذي يفصل بين الأراضي الفلسطينية المحتلة والأردن، فقام أخي الأخر أمجد بنقل الحقائب إلى تلك الحافلة، ثم أقفلت أمي منزلها مودعةً إياه على أمل العودة له بعد شهر أو أكثر، أي بعد أن تتم مراسم زفافي.. أما أنا فنظرت نحو البيت على أمل أن أتمكّن من العودة إليه يوماً مع عبد القدوس، ونحن نحمل معنا أطفالنا لكي نزور أمي.

نحو منزل أم عبد القدوس توجّهنا، وهناك وجدنا الأستاذ عابدين وقد استعد للسفر معنا، واضعاً حقائبه وحقائب خالته أم عبد القدوس بجوار المنزل، فقام أخي أمجد بنقل تلك الحقائب إلى الحافلة كما فعل سابقاً مع حقائبنا، وأتبع تلك الحقائب بأن قام بمساعدة الأستاذ عابدين بتصعيد أبي عبد القدوس وزوجته إلى الحافلة، وانطلقنا جميعاً متوجّهين مباشرة من مدينة القدس المحتلة نحو مدينة أريحا، لكي نمر عبرها إلى النقطة الحدودية..التي وصلنا إليها وعبرنا إلى الأردن ومن هناك إلى المطار.. وبالطائرة وصلنا إلى وجهتنا، حيث كان عبد القدوس ينتظرنا وهو يجلس على كرسي ذي عجلات، فهو لا يزال يعاني من آثار مرضه، ومن العملية التي لم يمضِ على إجرائها له إلاّ ثلاثةُ أسابيعَ.

تقدّمنا نحوه فوقف على قدميه متعالياً على ألمه لكي يضم أمه نحو صدره، أو لكي تضمه هي نحو صدرها... وأتبع ذلك بسلامه على والده.. ثم على الأستاذ عابدين وعلى أخي الأكبر كارم وأمي... ثم جلس على كرسيه دون أن يسلّم علي.. كدت أغضب بل كدت أجن، إلاّ أنه عاود الوقوف متحاملاً على نفسه، فقد كان منهكاً من جولة السلامات الأولى.. وقال:

- - أترين يا فلسطين كم أنت مهمة بالنسبة لي، فقد سلّمت عليهم كلهم دفعة واحدة، وها أنا أتفرغ لك وحدك لكي أسلّم عليك فمدّي يديك نحوي، فأنا زوجك يا زعترتي البرية.

مددت يدي وأنا أشعر بالحرج الشديد... وسلّمته إياها مع كل ما كنت أحمله له من مشاعر حب وإجلال وإكبار.

بعد مضي عدة أيام وأيام.. تحسّنت صحة الغضنفر بشكل يحسد عليه، إلاّ أننا

أجلّنا إقامة العرس عدة أسابيع ريثما يتمكّن من التعافي بشكل أكبر... وبحمد الله مضت تلك الأسابيع وأقمنا حفل عرسنا وعرس ساجدة وأحمد اللذين أصرا على تأخير حفل عرسهما ريثما يشفى عبد القدوس، وها أنا اليوم أعود للمطار لكي أودّع أمي وأخي كارم عائدين إلى القدس.. ودعتهما وودعت روحي لتكون أمانةً معهما في زهرة المدائن، في القدس المحتلة، تلك القدس التي وصف حالها الآن أسير فلسطيني ما يزال يقبع خلف قضبان الأسر والعزل، فقد تحدّث ذلك الأسير من قبو عزله الانفرادي واصفاً القدس التي أحبها وأحببناها.. فقال:

هناك في القدس ما عاد للانتظار مكان وما عاد بالمكان إنسان.

في القدس غرست أنياب الطغيان وغَرس الصهاينة الاستيطان.

في القدس ما عاد للحجارة ثمن وما عاد يسمع الأذان.

هناك في القدس وغُرس قاطعو الزعتر والزيتون.

في القدس ما عاد للقباب لمعان وما عاد حي سلوان.

في القدس غُرس الظلام والجنون وغرس عطش الظمآن.

في القدس ما عاد زيت وزيتون ما عاد المصلون يأمون.

هناك بالقدس ظلم بلا قانون وقُضاة ظالمون.

أماه في القدس ما عاد يطحن الطحين وما عاد عنب ورمان.

في القدس اقتلع الكره الغفران وغُرس الجهل والطغيان.

في القدس ما عاد هناك أديان ومصلون.

امتلأت القدس أعداءً غيلان وغُرس وحش ملعون.

في القدس غرس قلب حزين وأعمى بلا عيون.

في القدس ما عاد للمكان تكوين وما عاد يقرأ قرآن.

في القدس غرس الجن والجان ؛ غرس من بالكفر دان.

في القدس ما عاد لنا جدران وما عاد البراق بأمان.

في القدس ما عاد نصارى ومسلمون؛ ما عاد سوى بني صهيون.

في القدس غُرس جثمان المجاهدين ووضع القيد بأيدي المأسورين.

حريق ودخان.... في القدس... حريق ودخان.... في القدس.

كانت تلك الكلمات التي قالها لي عبد القدوس نقلاً عن أسير فلسطيني من أولئك الأسرى الذين رفعوا راية المقاومة والجهاد عالياً، كان عبد القدوس يردد ويردد تلك الأبيات والدموع تنهمر من عينيه متذكراً القدس وما حلّ بها من خراب ودمار على أيدي الصهاينة المحتلين، متذكراً أخاه الذي تركه خلفه في قبو عزله... فصحيح أن المقاومة تمكّنت من تحرير أكثر من ألف أسير من سجون الاحتلال الصهيوني البغيض، إلاّ أنه لا يزال هناك الآلاف خلف قضبان سجون الظلم والظلام.

دعا عبد القدوس ربه ودعوت معه، لعل الله يفك قيد من بقي خلف القضبان... فعلى الرغم من سعادة عبد القدوس بتحرره وزواجه والتقائه بأمه وأبيه... إلاّ أنه كان يحمل داخل قلبه غصة. وألما وحزنا على أولئك الذين ينتظرون بصمت فرج الله عليهم وتحريرهم من الأسر.

تمت هذه الرواية يوم ٢٠١٢/٤/١١ قبل دخولي في إضرابٍ عن الطعام... إضراب قمت به لعلي أتمكن من الخروج من قبو العزل الانفرادي الذي أقبع داخله منذ نحو عشرة أعوام.. لم أتمكن خلالها من رؤية أمي.. وأبي.. وزوجتي.. وأطفالي.. وإخوتي... لم أتمكن خلالها من رؤية نور الشمس، إن كان هناك للشمس نور.. فأنا بدأت أشك بأن هناك نوراً ما زال يسطع من الشمس... قد أتمكن من الخروج من قبو عزلي، وقد لا أتمكّن... فأنا قد أخرج من قبو العزل إلى قبو القبر إن متّ نتيجة إضرابي.. وهذا يعني أنني سوف أنتقل من قبرٍ إلى آخر..بلا شمس وبلا حياة لعل الله يجعل في قبري الآخر نوراً... آمين.

عبد الله غالب البرغوثي

الغضنفر

من أقوال المهندس عبد الله البرغوثي :

لا تنسوا المهندس في عتمة عزلته لقد كان فيكم للحرية عنوانا

الموقع الالكتروني

http://daralbargouthi.com

كلنا مع الأسير الأسد عبد الله البرغوثي

دار البرغوثي للنشر والتوزيع

daralbargouthi@gmail.com